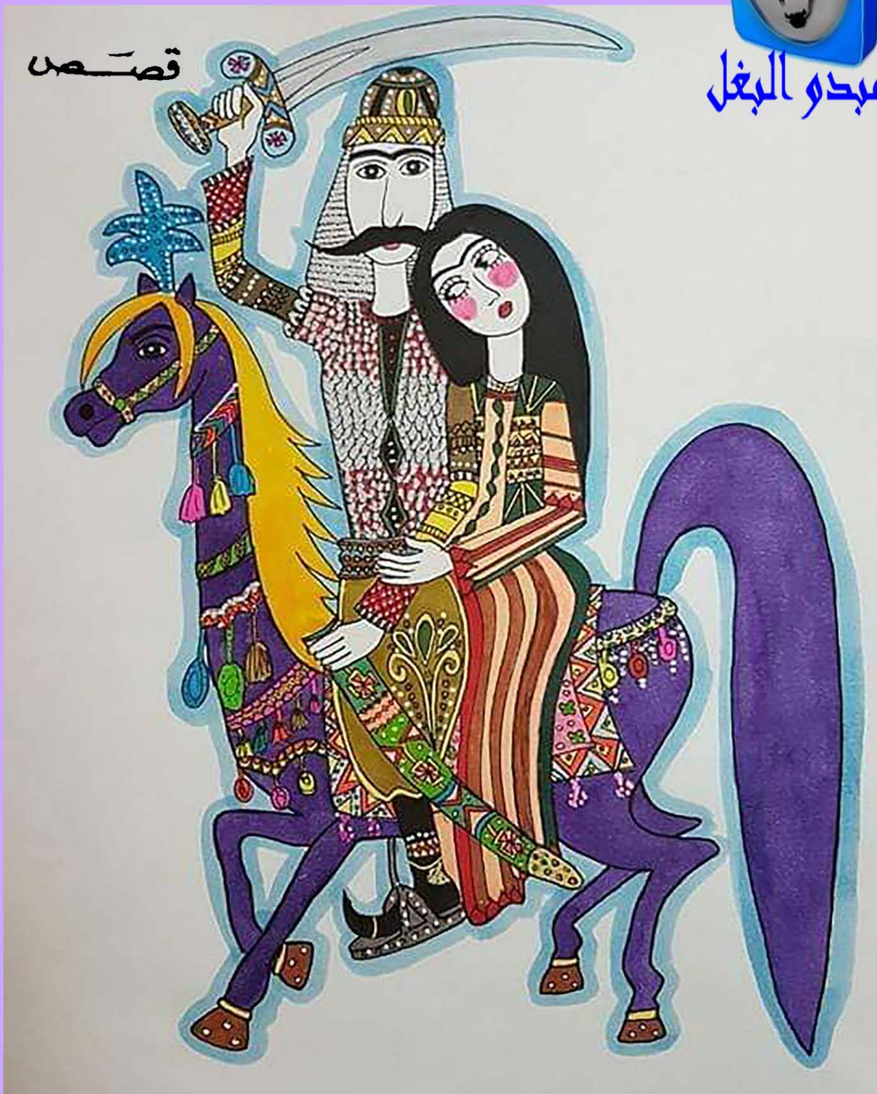
جورج سالم

حكاية الظمأ القديم



قصص

جورج سالم

حكاية الظمأ القديم

قصص

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ١٩٧٦

تصميم الغلاف : نعيم اسماعيل

إليهـــا ..

كتبت قصص هذه المجموعة

خلال الاعوام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤

أبو عبدو البغل

القوقعة

منذ يومين ، بدأ ألمه ، لم يكن ألما جسديا « حادا » نتيجة ما أصاب رجله من دهس وحسب ، بل كان ، وهذا هو الاهم ، ألما نفسيا دفينا فجرته هذه الحادثة غير المتوقعة ، فأثار ذلك في نفسه الفزع والقلق والغم في آن واحد ·

فكّر بل همّ بالخروج ، ولكنه سرعان ما شعر بالالم يعاوده وخشي إن هو خرج أن يتعرض لحادثة ثانية ، فلاذ بالهدوء ، وأقام في مكانه لا يريم ·

يومذاك كان قد قرر المجيء الى هذه الواحة ، هل حدث ذلك قبل عام أو قبل عامين ، أو قبل أعوام عديدة ؟ انه لم يعد يعرف شيئا عن الاوان · لقـد انصهر الزمن وتلاشى ، وقبل ذلك اليوم كان قد أمضى سنوات طويلة تنقـل

فيها بين الجامعات ونال أعلى الشهادات ، وطالع خلال ذلك مئات المؤلفات وآلاف الصحف ، وجاب بلدان العالم يختلط بالشعوب والناس ، وتزوج من فتاة جميلة ، وأنجب منها عدة أولاد ، وفي خاتمة المطاف ، وقد ثقلت عليه الهموم، وامضته متاعب الحياة ، برزت في نفسه قناعة مطلقة كانت قد تكونت ساعة بعد ساعة ويوما اثر يوم بأن كل شيء ككل شيء ، وأن كل شيء ، في النهاية ، كلاشيء ! هذه القناعة هي التي أملت عليه أن يبحث عن مكان بعيد ، ينأى فيه عن البشر وعالمهم ٠

واقام يفكر في ذلك شهورا طويلة . ويقلب الامر على وجوهه ، ومن أجل ذلك جاب السهول والجبال ، وطاف في الشعاب والاودية كلما وجد لديه متسعا من وقت أو شيئا من فراغ ٠ كان يسعى للوصول الى مكان مثالي ، مكان هادىء لا يصل اليه ضجيج البشر وصراخهم ، وكان يعثر في بعض الاحيان ، على بقعة يخيل اليه أنها صالحة لاقامته ، ولكنه لا يلبث أن يكتشف أنها تطل من احدى جهاتها على درب يفضي الى طريق عام أو قرية صغيرة ، فيعدل عن هذا المكان ، ويمضي باحثا عن سواه ٠

وكان يوم عثر على هذه الواحة ، مكان ملآن بالاشجار الوارفة والمياه العذبة والثمار الطيبة ، ولم يصل الى هذا المكان الا بشق النفس ، فقد كان منقطع الصلة بكل طريق بشري ، وهو ما يزال يذكر أنه ترجل من احدى السيارات وسار يومين متواليين لكي يصل اليه ، وأما اكتشفه كاد يطير فرحا ، وأيقن أن تعبه الطويل ذاك ، لم يذهب سدى ٠ قال في نفسه :

ـ هذا المكان لا نظير له ، لكأنما خلق لي خصيصا !

وبقي أن يعثر على مكان يأوي اليه ٠ كانت ارض الواحة ملساء مستوية ، وسار ثمة ساعات ! ٠ عند ذاك ، فيما يذكر ، برزت تلك القوقعة ، وليس يدري من

أين برزت ولا كيف ظهرت . أهي سراب أم رؤيا بعد هـذا العناء الطـويل ؟ وشك في ما يرى طويلا • ولعل أول ما لفت انتباهه ذاك البريق الوضاء الذي كان يتلألأ في وضح النهار تحت أشعة الشمس . كأنما كان أمام فضة معلقة • واقترب منها متمهلا خائفا . ولم يصدق عينيه فقرب يده يتحسس بها ذلك • كانت قوقعة ضخمة أكبر من أية قوقعة راها في حياته . بل أكبر من أي انسان أتيح له أن يصادفه في أي يوم وقال في نفسه :

ـ أي حيوان كانت تؤوي هذه القوقعة الجبارة ؟!

وراح يتفحصها ويختبر صلابتها . انها لأصلب من الصخر ، من أي صخر . وتردد طويلا قبل أن يلجها • ثم أقدم في شيء من الخوف . كان باطنها غضا لين الملمس كلحم طفل . واحتضنته كما يحتضن المهد الوليد الصغير . وتمدد فيها وأغفى بينما النسيم يداعب خصلات شعره ويمر على وجهه رطبا خفيفا . وتذوق لأول مرة في حياته طعم الهدوء ونكهة الطمأنينة ومذاق الراحة •

وتلاشت ، مع مرور الدقائق والساعات . كل الذكر الماضية ، حتى نسي كل شيء ، كان يمضي الليل ومعظم النهار مستلقيا في باطن القوقعة حتى [illegible] لكأنه استحال جزءا منها • وكان أول الامر يقوم بين الحين والحين . ليسير [illegible] بعض الثمار من على الاشجار . ثم خفت شهوته الى الطعام . وقل ميله الى النهوض ، وأضحى يغفو سعيدا خالي الذهن •

كان كل شيء يجري على ما يرام ، كما كان يتمنى . فوق ما كان يتمنى ، لولا حادثة الدهس هذه •

تساءل في نفسه :

ـ كيف حدث ذلك ؟ وما سبب حدوثه ؟

ووجد نفسه مضطرا الى أن يفكر ، ودفعه التفكير الى النهوض والبحث · وبحث طويلا ، وتجول في أرجاء الواحة ، ولكن لا أثر لكائن حي أو حركة نامة في طول الواحة وعرضها ، ورأى أن يعود سريعا الى القوقعة ·

في صباح اليوم التالي ، انبعث من حنجرته صراخ مدو يكاد يصم الآذان ، عكر صفو الواحة وهدوءها ، لقد دهست رجلاه كلتاهما أو هكذا خيل اليه · واشتدت وطأة الالم عليه حتى حالت دون نهوضه · أهو دهس ؟ ومنذا الذي يدهسه ؟ لقد أحس كأن شاحنة ضخمة تسير على قدميه ، ولكنه كان موقنا أن ما من شاحنة في المكان ، بل ليس ثمة طريق بين الاشجار تسمح بمرور شاحنة أو سيارة · قال في نفسه :

ــ لعل صخرة سقطت على رجلي !

وتطلع فيما حوله فلم يجد أثرا لأية صخرة أو حجرة أو حصاة ، المكان نظيف لامع متلألىء ، ومع ذلك فقد كان الالم في رجليه شديدا ، وأحس بهما باردتين من الالم ، وحاول أن يحركهما فلم يستطع ، وجهد أن ينام ولكن النوم تعذر عليه ·

ولو أن الامر توقف عند هذا [illegible] أن يثبت له ، الا أن وضعه ازداد سوءا ، حتى اضطر أن يجأر بالشكوى ، ولكن من عسى أن يستجيب لشكواه ·

وتكرر ذلك مرة ومرة ومرة · كانت ساعات الصباح قاسية اليمة ، أقسى من ان [illegible] أو يصبر عليها ، وكانت تنطلق من أعماقه ، في بعض ساعات النهار ، صرخة مدوية :

ــ ان هذا الالم لأقسى من كل ألم انساني !

ولكن الرياح كانت تذرو صرخته تلك • وحاول أن يتذكر أيامه الماضيات وزوجه وأولاده كيما يشغل نفسه عن هذا الالم . ولكن كل ذكرياته كانت قد أمحت ، لقد سبق أن صمم على ازالتها • وها هو ذا الآن عاجز عن استعادتها . ووجد عجزه هذا أليما • وقال في نفسه وهو يحرك رأسه في أسى :

ـ ان اللعبة خطرة •

في الايام التاليات . صار يشعر أن يديه ورجليه معا تتعرض لهذا الدهس الخفي •

أما الآن فان جذعه وأطرافه كلها غدت متشنجة لا تستطيع حراكا . وكانت كل خلية فيهـا تخزه وخزا حادا مستمرا . ولم يبـق الا رأسه قادرا على الحركة •

وآنئذ برز أمامه حتى كاد يخفي عنه الضياء بقامته الطويلة . أكان شيخا جليلا أم عرافا أم كاهنا ؟ لم يستطع أن يتبين ذلك ، ولم يجرؤ أن يوجه اليه السؤال فقد عقلت الدهشة لسانه •

أصغى الرجل الجليل الى أنينه طويلا دون أن يفتح فاه • لم يقترب منه كثيرا ، ولم يحاول أن يعرف ما به • كان يتمتم ببضع كلمات وحسب ، وطال وقوفه •

نظر اليه من خلال أنينه نظرات استعطاف ، كأنما وجد فيه الخلاص مما يعاني ثم استجمع أطراف شجاعته وما تبقى فيه من رمق ، وهتف :

ـ انقذني يا معلم !

عند ذلك حنا الرجل الجليل عليه ، وهدر صوته يقول :

ـ ما بك ؟

يا للسؤال ! كان يعتقد أن الكون كله يسمع صراخه ويعرف ألمه ! فلم يدر أول الامر بم يجيب ·

قال الرجل الجليل :

ـ قل ، ما بك ؟

فحرك لسانه الجاف في فمه برهة ، ثم قال في يأس :

ـ لقد دهست أطرافي ·

وأضاف : . .

دهست رجلاي أولا وتكرر ذلك ، ثم دهست ذراعاي ·

حرك الرجل الجليل رأسه علامة النفي ، ثم قال :

ـ ليس في المكان كله ما يدهس ·

قال في نفسه :

ـ أأنا واهم ؟

ثم صرخ بصوته الضعيف :

ـ ولكنني أتألم ، ان الالم يبريني ·

واضاف بعد فترة وهو يبكي ، ربما لأول مرة في حياته ، بدموع كقطرات الدم :

ـ أنقذني ، داوني ، أنت يا من تعرف كل شيء ·

واجاب الرجل الجليل :

ـ لا دواء ! لقد قضي الامر ·

أراد أن ينهض ليطرد هذا الكابوس ، فلم يقدر علـى النهوض وهمّ بأن يحرك يديه متوعدا ضارعا ، ولكن يديه خانتاه فلم يزد على أن حرك جفنيه ·

صرخ أخيرا وهو يرى الرجل الجليل يهم بالرجوع :

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

ساد الظلام العالم واحتجب الضياء · جاءه صوت الرجل الجليل مدويا كأنه منبعث من أعماق الابدية :

ـ حجبت النور عن قلبك فجف وتحول الى قطعة من خشب وصار عاجزا عن تغذية أطرافك ، وهذا كل ما في الامر · ليس هناك دهس ولا ما يشبه الدهس ·

ثم قال في شبه ألم :

وعما قليل سيصير قلبك حطبا تنخره الديدان ·

ولم يلبث قلبه أن تحول ، في ساعات قليلة ، الى قطعة من خشب لا تتحرك !

صحرائـــي

حين دق الباب في ساعة متأخرة من الليل ، كنت قد أويت الى فراشي أطالع على عادتي كل مساء ، فنهضت وسارعت الى ارتداء معطفي ، وقلت في نفسي ، وأنا أقطع المسافة بين حجرة النوم القصية وباب الدار ، لعله زائر جاء يسهر عندنا أو ضيف ينوي المبيت لدينا ، ولكنني ما ان اقتربت من الباب حتى رأيت شبحين قد انعكس عليهما ضوء مصباح الدرج فاستبان ظلاهما من خلف ناقذتي الباب الزجاجيتين · أضأت نور المدخل ، وعلى سبيل الحيطة فتحت النافذة الزجاجية أتبين هذين الطارقين · قالا لي :

ـ عمت مساء ·

فاجبتهما :

ـ مساء الخير ·

نظرت اليهما نظرة الفاحص فلم أتعرفهما · بل أستطيع أن أؤكد أنني لم أرهما في حياتي قط . ونظرت الى هيئتهما فبدت لي عادية جدا ولكنهما كانا يرتديان ثوبين رماديين متشابهين ، ويعتمر كل منهما بعمرة رمادية ·

قال أحدهما ، وكان أطولهما جسما وأثقلهما وزنا :

ـ أأنت المدعو فلانا ؟

قلت وأنا أشير الى اللافتة الصغيرة النحاسية الموضوعة بجانب جرس الباب :

ـ نعم ، تفضلا ، ماذا تريدان ؟

لم يبق لدى شك في أنهما ليسا من الضيوف أو الزائرين ، وهممت بفتح الباب الذي كان موصدا بمتراس صغير ·

عند ذلك نظر أحدهما الى وجه الآخر ، وقالا معا بصوت واحد :

ـ لنا عندك حاجة ، فهيا اتبعنا !

بادرتهما بالسؤال :

ـ لماذا لا تتفضلان بالدخول ، وهناك يمكن أن تنجلي الامور ، وأفهم هذه الحاجة التي تتكلمان عنها ·

بان العبوس على وجهيهما ، وقالا على الفور ·

ـ ان الموضوع لأخطر مما تتصور ·

قلت في استياء .

ـ لا بد أنه خطير ، والا فما معنى أن تطرقا الباب في مثل هذه الساعة المتأخرة ، والنهار طويل ، ومكان عملي معروف ، وما من صعوبة في الاهتداء الي ؟

كنت أحادثهما من خلال النافذة ، فرأيت من الافضل أن أفتح الباب، ففتحته ولكنني لبثت في مكاني من مدخل الدار ، ولبثا هما في مكانهما ، يفصل الباب الخشبي بيننا ٠ كان ضوء الدرج الآلي ينطفيء كل بضع دقائق ، فيمد أحدهما يده بتؤدة ويضغط على الزر دون أن يرف له جفن ٠

خيل الي انني كنت ، بكلامي ذاك ، قاسيا عليهما ، جافا في معاملتهما ٠ فقلت :

ـ على كل أرجو المعذرة ، هلا تكرمتما بالدخول ٠

وتوقعت منهما أن يعتذرا أو يبديا أسفهما لمجيئهما المزعج في مثل هذه الساعة ، ولكنهما لبثا جامدين ينتظران ، واذ طال بهما الانتظار صرخا وكأنما عيل صبرهما :

ـ أسرع !

اعترتني دهشة ، وشعرت بالغيظ يعتمل في نفسي ، كيف أسرع ولماذا أسرع وقد كنت على أهبة أن أنام ؟

ثم أضافا بعد هنيهة :

ـ عليك أن ترتدي ثيابك بسرعة لتذهب معنا ٠

قالا ذلك واستدارا معا بحركة واحدة ، وكانما صار كل شيء واضحا ٠ هممت بأن أصرخ ، ولكنني تذكرت أن فوقنا وتحتنا والى جانبنا تقيم أسر عديدة فخفضت صوتي وقلت :

ـ والى أين أذهب في مثل هذه الساعة ؟

فأدار أحدهما رأسه وقال في حزم :

ـ اذا كنا أتينا في ساعة متأخرة فلأن الامر صدر منذ أقل من ساعة ، أما ارجاؤه الى صباح الغد فذاك فوق طاقتنا ·

قلت :

ـ الامر ؟ أي أمر ؟

وصرخت غير آبه بالجيران هذه المرة :

ـ ما هذا الامر أيهما المتطفلان ، ما هذا الامر ؟

قالا بمنتهى الهدوء ورباطة الجأش :

ـ الامر ستطلع عليه في الطريق ، تلك هي التعليمات ، والآن عجل بارتداء ثيابك وودع أفراد أسرتك ، ولا ترغمنا على استعمال العنف !

وقفت لحظة أسترد أنفاسي ، والشرر يتطاير من عيني الكليلتين : استعمال العنف ، وفيم ذلك ؟ واستجمعت قوتي وشجاعتي اذ بدا لي الموضوع خطيرا جدا .. وقلت :

ـ بل اريد أن أراه وأقرأه الآن ، وفي هذه اللحظة ذاتها !

كنت أكلمهما وقد أدارا نحوي ظهريهما ، فاستدارا الآن حين سمعا قولتي هذه . وقالا بسرعة :

ـ التعليمات هي التعليمات ·

وبدا أن الرجل الذي كان يميل الى الضعف كان أرق قلبا فغمز زميله الذي ظل وجهه جامدا وقال لي :

ـ ليس في استطاعتنا أن نطلعك على الامر أو نسلمك اياه هنا ، فهذا محظر علينا . ولكنني أستطيع أن افهمك مضمونه وأشرح لك بعض ما جاء فيه ٠

أمسكت بالباب الخشبي اذ بدأت الارض تميد تحت قدمي ، ثم قلت له .

ـ قل فأنا أصغي اليك ٠

ـ لقد صدر منذ أقل من ساعة أمر بنفيك الى الصحراء ٠

ـ الى الصحراء ؟

ـ نعـم ٠

وعقلت الدهشة لساني ، كنت أريد أن أستوضح السبب ، لكن الكلمات خانتني ، كان الرجل ينظر الي فقال وكأنه أحس بما بي :

ـ تريد أن تقول : ولماذا ؟ أليس كذلك ؟

هززت رأسي موافقا فقال :

ـ يبدو أنك خالفت أوامر الدولة فصدر أمر بنفيك الى الصحراء ٠

بدأ الالم والخوف يتسربان الى نفسي : الصحراء ! وغشيت عيني غيمة سوداء هذا المكان المقفر الموحش حيث تنفصم علائقي بمن أحب ، فلا أنيس ولا حبيب ولا محبة بل وحشة دائمة ٠ صرخت في وجهه :

ـ هذا حكم ظالم جائر واني لأرفضه ، وأرفض الامتثال له وتنفيذه مهما تكن نتيجة ذلك ٠

وعلى حين غرة خطرت لي فكرة دهشت كيف غابت عن ذهني كل هـذه المدة فقلت للرجلين :

ـ ولكنني لم ارتكب اي ذنب ولم اخالف اي قانون من قوانين الدولة ولم توجه الي أية تهمة ، فانا مواطن أقوم بواجبي في استقامة واخلاص ٠

ضحك الرجل الضخم ، وقال لي في شيء من السخرية :

ـ ارايت ، انك لساذج ٠ كان ينبغي أن تسأل عن هذه النقطة قبل كل شيء ٠ والتفت الى زميله وقال له :

ـ هلا أنبأته بجريرته !

تنحنح الرجل الآخر ، وقال هامسا :

ـ أنت يا سيدي الكريم مدان بفرط الحساسية ، وهذا كل ما أعلمه ٠ أما التفصيلات فلدى المسؤولين ٠

فصرخت بصوت مدو :

ـ ومتى كانت الحساسية ذنبا يؤاخذ عليه المواطن ؟

فقاطعني بسرعة وهو يقول :

ـ ليست الادانة على الحساسية ، بل على فرط الحساسية ، وبينهما فرق اليس كذلك ؟

لم أجب بكلمة ٠ كنت احس بمرجل يغلي في عروقي ٠ ولم أعد قادرا على الصبر وأنا أرى الرجلين يتعجلان ذهابي ٠ فاندفعت كالسهم الى غرفة الجلوس واستخرجت من درج الطاولة مسدسا سريع الطلقات وتناولت مدفعا رشاشا كان معلقا على الجدار وبحثت عن قنبلة يدوية كنت قد خبأتها في أحد الادراج ، وهجمت اريد قبل الرجلين وانتزاع روحيهما وبعثرة أشلائهما على سلم البناية ٠

اندفعت نحوهما ، واذ لمحا ما في يدي من أدوات الدمار ، ابتعدا حتى كادا يلامسان باب منزل الجيران ، وقال الرجل النحيل منهما :

ـ لماذا تريد أن تقضي علينا ، ونحن لا نعرفك ، ولا علاقة لنابهذا الامر ، لقد كلفونا بابلاغك ليس الا ٠

أضاف الرجل الضخم بصوت كصوت الاطفال :

ـ ان لنا نحن أيضا زوجة وأطفالا فلماذا تريد أن تحرمنا منهم ؟!

ثبت الى رشدي حين ذكر الرجل زوجته وأطفاله ، وخطرت في خيالي ، كومض البرق ، صورة زوجتي المستلقية في الفراش ، وابنتي الصغيرة الغافية في الغرفة المجاورة منذ ساعات في نوم كنوم الملائكة ، وكنت قد قبلتها قبل أن آوي الى فراشي، ومسحت بيدي وجهها الغض وضفيرتيها الذهبيتين بلون القمح ٠

التفت نحو الرجلين وقلت لهما في خجل وندم :

ـ الحق معكما ، واني لآسف على ما بدر مني نحوكما ، ولكنني لن أذهب الى الصحراء مهما كان الثمن ، ولو اضطررت الى أن أخوض معركة تقضي على حياتي ، فذاك خير لي من أن أترك أسرتي ٠

ثم أضفت وأنفاسي تتلاحق لاهثة في صدري :

ـ عليكما أن تخبرا الذين أرسلوكما الى هنا أنني لن أنفذ هذا الامر ، وسأقتل كل من ينوي حرماني من زوجتي وطفلتي والزج بي في الصحراء ٠

استدارا وراحا يهبطان سلم البناية ، ثم توقفا فجأة وقالا بصوت واحد :

ـ ذهابك الى الصحراء حتم ، وسيتم في غضون أيام قليلة ٠

فصفقت الباب في غضب ، وجلست لحظة أستريح ، ثم أطفأت الانوار ، وعدت الى غرفة النوم مكتئبا ٠

كانت زوجتي ما تزال يقظى . فأخبرتها خبر الرجلين وأمرهما العجيب ، فراحت تضحك ، فغضبت غضبا شديدا • ولكن سرعان ما سري عني ، فأنا أحب ضحكتها هذه ، وأرى فيها العالم كله يستحيل الى نجوم وكواكب مضيئة ، وتمسي عيناها اذ تضحك بحيرتين صافيتي المياه عذبتي الاغوار • وكنت أحب عينيها هاتين ، فهما سماء صافية تمتد فوق بحيرة صافية • لم تتوقف عن الضحك ، وقالت أثناء ذلك :

ـ لا يعدو كل ما قلت أن يكون كابوسا أو هلوسة •

قلت لهـــا :

ـ ولكنك سمعت صوت الجرس ، أليس كذلك ؟

فنفت أن تكون قد سمعت أي صوت في هذا الليل الصامت الهادىء حيث الشوارع خالية ، والناس قد أووا الى منازلهم بتأثير البرد والمطر • قالت لـــي :

ـ حين رأيتك تغادر فراشك خيل الي أنك ذاهب لاحضار كتاب أو مجلة على عادتك •

قلت لها معاتبا :

ـ ولم تستبطئيني ؟!

ـ ولكنك لم تتأخر الا دقائق معدودة •

وأردت أن أطلعها على المسدس والمدفع ، ولكنني لم أجدهما في يدي ، فصمت ، وفي تقديري أني تركتهما في الغرفة الاخرى قبل مجيئي الى غرفة النوم •

□ □

لم يلبث النسيان أن طوى فيما تلا ذلك من أيام ذكرى تلك الليلة ، ولولا ثقتي بحواسي وعقلي لرأيت رأي زوجتي واعتبرت الموضوع كله كابوسا أو هلوسة • كل ما خلفته تلك الليلة هو أنني ازددت تعلقا بابنتي ذات الضفيرتين الشقراوين والوجه القمري وبزوجتي التي كانت ابتسامتها تضيء أعماقي وتحمل قلبي على الخفقان الشديد •

وأخيرا على غير توقع حلت الكارثة ، الكارثة الجلى • كانت كأنما خسفت الارض أو انشق القمر أو تزعزعت الجبال الراسية • فقد عدت من عملي بعد الظهر لأتناول طعام الغداء • كنت أتوقع ، اذ فتحت الباب ، أن أرى زوجتي تعد الطعام وابنتي تلعب بلعبتها السمراء ذات الشعر القصير ، ولكنني وجدت المنزل خاليا • بحثت في أرجاء البيت وناديت وانتظرت برهة وأنا عرضة لمختلف التقديرات والتكهنات ، ولما طال بي الانتظار وجدتني مسوقا الى أن أسأل الجيران عنها • ولكن الجيران كل الجيران نفوا أن يكونوا قد رأوهما • واتصلت بمنازل أقربائي وأصدقائي الا أن الجميع أكدوا لي أنهم لم يروهما ولا اتصلوا بهما • والتجأت آخر الامر الى الشرطة ، فخابروا مختلف المخافر والمراكز ولكنهم في النهاية أبدوا أسفهم ، أسفهم الشديد •

وجدت أن القضية غدت خطيرة للغاية ، فارتديت معطفي على عجل ، وقصدت المخفر المركزي وكان يقع على مسافة ما من منزلي ، وتنقلت من شرطي الى شرطي ، ومن غرفة الى أخرى ، حتى انتهيت ، في نهاية المطاف . الى غرفة رئيس المخفر • ادخلوني غرفة واسعة جرداء تتصدرها طاولة خشبية متآكلة ، ووراءها كان يجلس الرئيس ، ورأيت الى جانبه ، وعلى طاولة أصغر ، شرطيا ضخم الجسم قدرت أنه معاونه •

رحت أسرد على مسمعهما بسرعة وانفعال موضوع تغيب زوجتي وابنتي

وبدا لي أن هذا الموضوع لم يكن غريبا عنهما · واستمعا في أدب وهدوء الى حديثي المسهب دون أن يرفعا رأسيهما أو ينبسا بكلمة · وتوقفت عن الكلام بغتة اذ لم يعد لساني قادرا على الحركة . هذان الرجلان ! وأسقط في يدي فلم أعد أعرف ماذا ينبغي أن أفعل أو أقول · هذان الرجلان : لقد عرفتهما ! ولست أشك في ذلك ، انهما ذانك اللذان جاءا منذ بضعة أيام يطرقان باب بيتي ليلا · تسمرت في مكاني وبودي لو أعود أدراجي ·

رفع الرئيس رأسه وقد أدرك اضطرابي وحيرتي وقال وهو يتظر الى السقف :

ـ لا عليك ! ان الموضوع لأيسر مما تظن ·

فازدادت دهشتي وبذلت كثيرا من الجهد لأصرخ فاذا صوتي لا يعدو تمتمة ضعيفة :

ـ ولكنني لم أرهما في البيت ، وليس من عادتهما أن يغادراه دون أن يعلماني ، وقد بحثت عنهما في كل مكان فلم أهتد اليهما ···

انبسطت أسارير الرئيس ومعاونه ونظر أحدهما الى الآخر،ثم نقر الرئيس نقرات عديدة ، أثارت أعصابي ، قبل أن يقول :

ـ اسمع يا سيدي الكريم ، لقد استقصيت الموضوع من جميع جوانبه فوجدت أنه لا يمكن أن يخرج عن هذه الاحتمالات الثلاثة ·

وصمت طويلا بينما كنت أرتعد غيظا وألما ، ثم أضاف :

ـ فاما أنهما ماتتا ، وفي هذه الحال ، فسيصلنا ويصلك نبأ ذلك في أقل من ساعات · واما أنهما اختطفتا ، وهنا أيضا فان جهاز الشرطة الذي أعلم بذلك في كل أرجاء البلاد قادر على الامساك بالمختطفين واعادة المرأة والفتاة الى منزلهما ، وليس يستغرق ذلك أكثر من يوم أو يومين ·

وأطرق برهة شعرت فيها أن أنفاسي تكاد تتوقف في صدري ، فسألته وقد نفذ صبري :

ـ والاحتمال الثالث ؟

أما الاحتمال الثالث ، وهو أسوأ الاحتمالات ، فأن تكونا غابتا واختفتا لسوء حظك ، وفي هذه الحال فليس في وسعنا أو وسعك أن نفعل أي شيء • وان كنت أستبعد هذا الاحتمال شخصيا ، فوقوعه نادر جدا •

التمست كرسيا أجلس عليه ريثما أستعيد وعي • وخيم الصمت على الغرفة ، صمت كصمت القبور ، فرأيت أن أنسحب وأعود الى منزلي حيث ارتميت على السرير خائر القوى ، ورحت أنشج كطفل صغير •

مر يوم وتلته أيام • ومات كل أمل في العثور عليهما • كنت أروح وأغدو الى عملي كمن يسير في نومه غير واع لما يجري حوله • ولم أعد أشعر بقابلية لتناول الطعام فصرت أقتصر على بعض الفواكه والثمار النيئة ، وانتهى بي الامر الى أن آكل الحشائش وأشرب الماء وحسب • ولاحظت مع مرور الايام أن الغبار أخذ يغزو المنزل ويتراكم فوق الاثاث الذي لم يعد يستفيد منه أحد • فكوّن أول الامر طبقة رقيقة فوقه ما لبث أن أخذت تتزايد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ، حتى حجبت كل شيء ، ولم يبق ثمة الا فراشي الذي كنت أتقلب عليه طوال الليل كمن يتقلب على الجمر • حتى المصابيح الكهربائية غطاها الغبار والتراب الذي كانت تسفوه الرياح من شتى نوافذ الغرف وهي كثيرة في منزلي• فكان البيت يغرق في الظلام مع غروب الشمس ولا يرى النور الا في صبيحة اليوم التالي • وأنا الآن اذ أسير في أرجاء المنزل أشعر أنه يتسع ويتسع وأن قلبي ينقبض وينقبض حتى ليستحيل ذرة صغيرة من غبار تتألم •

الحصــن

في ذلك اليوم خرج على عادته يتجول في شوارع البلدة وقت الغروب . ولعل من الانصاف أن يقال أن البلدة التي يعيش فيها وهي بلدة صغيرة محدودة نقطة تائهة في عالم لا حدود له ، تتألف من عدد ضئيل من الشوارع المتقاطعة بدقة هندسية عجيبة · ولقد درج منذ زمن بعيد على أن يطوف في هذه الشوارع في مثل هذا الوقت من النهار في الصيف والشتاء ، في الحر والبرد ، فتلك كانت متعته الاولى ، والتسلية الوحيدة التي كانت تمنحه اياها الحياة في هذه البلدة الرئيسية · ومع ذلك فقد كان يحب بلدته هذه ، ففيها ولد ، ومن قبل ولد فيها أبوه وجده وأجداده جميعا حتى لكأن الله خلق أسرته في هذه البلدة منذ القديم ، فتوارثوا فيها الملال والسأم أبا عن جد ، وجيلا بعد جيل · ورغم ذلك

كله فما فكر واحد منهم بالنزوح عنها ، وما دار في خلده قط أن ينتقل الى بلدة أخرى . وما كان باستطاعته أن يفعل ذلك · لهذا فقد اعتبر نفسه ، منذ أن وعى ذاته ، جزءا لا يتجزأ منها ، من حجارتها الصلبة البيض الضخمة ، وكان يحب شوارعها الجافة الجرداء الخالية من أية شجرة أو نبتة أو غرسة ، ففيها يتعرف ذاته ، ويجد صورة عن أعماقه ، وربما كان هذا سبب تجواله المستديم في أرجائها ، وكان التجوال فيها زحزحة لصخرة تنوء بها نفسه من صميمها ·

الا أنه في عصر ذلك اليوم لم يسلك طريق العودة حين انقضت ساعة ، هي الساعة التي ألف أن يقضيها ذهابا لينفق مثلها في ايابه ، بل تابع المسير على غير هدى وسرعان ما وجد نفسه يلج أماكن جديدة وشوارع لا عهد له بها ، وان كانت لا تختلف كثيرا عن الشوارع التي يألفها ، وكأنما وجد في ذلك تسلية جديدة سر بها فاراد أن يتابع المسير · قال في نفسه :

ـ وأي ضير في ذلك ، وليس هناك من ينتظرني في البيت !

وهكذا تابع مسيرته في كثير من السرور والدهشة ، كانت الشوارع تتقاذفه كأنها أم حنون ، تحنو عليه ، وتسبغ عليه شيئا من المودة والطمأنينة .. ولم تلبث الشوارع أن تجمعت لتفضي به الى شارع متعرج ، واما بدأ يسير في هذا الشارع لمح من بعيد أشجارا خضرا وأحس بالهواء تزداد رطوبته ، وكان النسيم الذي يمر بهذه الاشجار يحمل معه شيئا من طراوتها ، فاجتذبته الاشجار وبدا كأنه يرى الطبيعة لأول مرة · كانت أشجارا سامقة مستقيمة ملساء الجذع تكاد تحجب أشعة الشمس بفروعها الكثيفة المنبسطة وأوراقها الخضر المتشابكة والارض يغطيها العشب الاخضر نظيفا ملتمعا يمتد في استقامة الى مسافة لا تصل اليها العين · وتناهى اليه صوت خرير المياه تنساب في جداول كالبلور ورأى من بعيد الينبوع الذي يمد هذه الجداول بالماء الصافي النمير ، وأعجبه أن المكان خال ليس فيه احد · ورأى أن ذلك كله حسن ·

وحين جنحت الشمس للمغيب وجد أن عليه أن يعود أدراجه فعاد مسرورا نشيطا سعيدا بهذه الجولة التي كشفت له من بلدته ما لايعرف ومن جمال الطبيعة ما لم ير • وأوى الى فراشه في غبطة لا عهد له بها • واستسلم — ربما لأول مرة في حياته — الى نوم هادىء لم يستعص عليه كشأنه دائما ، يحدوه أمل أن يعاود الكرة في اليوم التالي •

والواقع أنه قضى اليوم التالى كله منتظرا ، مترقبا أن ينتهي العمل ويحين موعد نزهته اليومية ، وشعر أن هذا الانتظار قد أعطى يومه نكهة خاصة جديدة وطعما لم يعرفه في أيامه الغابرة • ومضى يجوب الشوارع يغذ السير ، فلم يتوقف أمام واجهات المخازن ، ولم يتلكأ في مشيته • كان يريد أن يصل بأسرع ما يمكن ، الى المنطقة التي ارتاح اليها أمس • واما انتهى الى الشارع المتعرج الذي يفضي الى تلك الجنان تمهل في مسيره واستنشق أريج الارض المعطر ، واستسلم لنسيم المساء البليل فشعر بانتعاش كمن يستحم بعطر الورد، وسار طويلا في تلك المسالك يطوف بين الاشجار ، يتأمل خيالات الاوراق تنعكس على صفحة العشب اللامع • وظل على هذه الحال وقتا لا يملك أن يحدده الى أن رفع طرفه يستشرف المدى البعيد ، حينذاك بدا له ثمة ، في دهشة لا تعد لها دهشة ، ذلك الحصن • كيف نجم من الارض هكذا ، وكيف لم يره أمس ، وما شأن هذا الحصن في هذه المنطقة ؟ وحار في ما يرى ، الا أن منظر الحصن ببياضه المشرق ، تحت أشعة الشمس الغاربة قد سحره واستحوذ على نفسه • أي جمال يرى ! وبأية دقة رائعة شيد هذا الحصن بأبراجه الاربعة المتناسقة المستديرة الضاربة برؤوسها في الاجواء ، وحجارته الملساء • كان حصنا جميلا متناسق البنيان ، دقيق الصنعة ، مشادا فوق تل عال يشرف على العالم كله • وحين فكر فيه دهش دهشة كبرى ، فما تحدث عنه أحد أمامه قط ، ولا مر ذكره على لسان انسان في البلدة من أقاربه ومعارفه وأجداده ، ولم ير يوما

أية اشارة اليه في خريطة البلدة السياحية . بل لقد حز في نفسه أنه لم يلحظه مساء البارحة ، ولو أنه لمحه لسأل الناس عنه في بلدته · أليس من المخجل أن يكون هذا الحصن على مبعدة عدة فراسخ من بلدته وهو لا يعلم من أمره شيئا ولا سمع به قط ؟ وأحس أنه ينجذب اليه كأن قوة خفية تدفعه الى بلوغ هذا التل الذي أقيم عليه والولوج الى هذا الحصن الذي تمنّعه أبواب محكمة الاغلاق ·

كانت الشمس قد غابت فلم يبال بغيابها ، ولم يفكر كيف يعود ولا متى يعود . حسبه أن يرى هذا الحصن عن كثب ·

ومضى اليه بخطوات سريعة وعيناه متعلقتان به ، وسار طويلا بين الاشجار وسط الحقول ، الا أنه لم يعن كثيرا بجمالها · كان منظر الحصن يشده شدا وثيقا ، وحين صار على مقربة منه توقف في مكانه لا يجرؤ على الحركة فقد تناهت اليه بعض الاصوات الضعيفة الغامضة ولم يشك في أنها صادرة عن الحصن · قال في نفسه :

ــ لا بد أن يكون فيه أناس أحياء ·

وسر لهذه الفكرة التي ضاعفت رغبته في الوصول اليه ، ولكنه ما أن خطا بضع خطوات حتى سمع وقع حوافر خيول سريعة · واقترب الصوت منه شيئا فشيئا فاذا فارسان امامه يرتدي كل منهما ثوبا أسود قد لفعه الغبار ، يغطي جسديهما ولا تكاد تظهر منهما الا عيونهما ·

توقف الفارسان فجأة وأحاطا به ، ولم تستطع الفرسان أن تتوقفا فظلتا تتحركان في مكانهما · سرت في جسمه قشعريرة خوف ، واستدار يبحث عن سبيل العودة ، ولدهشته وجد أن الطريق قد اختفى واختفت معه الحقول والحدائق والاشجار · فقال في نفسه « عجبا أكان ذلك فخا ؟ » أما المدينة فقـــد بدت

بعيدة تسورها الصحراء والفراغ · وانطفأت بعض الانوار القليلة الضعيفة فيها ، وعم الظلام الكون ·

قال الفارسان برقة :

ـ مولانا يريدك ··

قال وقد شعر بقليل من الاطمئنان :

ـ ومن مولاكما ؟

أجاب الفارسان في دهشة :

ـ ألا تعرفه ؟ انه سيد الحصن ··

قال ونبرة صوته تشي بالاسف والاعتذار :

ـ وأنى أن أعرفه وما سبق لي أن رأيته ؟

حينذاك انتهره الفارسان وقالا له :

ـ وكيف تبحث عنه ان لم تكن تعرفه ؟

ـ ولكنني لم أبحث عنه ، كل ما في الامر أني خرجت من البلدة بعد أن خنقني الملال والسأم فانتهيت الى هذا المكان ·

ابتسم الفارسان وقالا له :

ـ ولكنه يراك في كل حين ، فأنت واقع في حقل رؤيته ·

قال :

ـ ربما ···

ثم تفكر قليلا وأضاف :

ولكن كيف تقولان أنني واقع في حقل رؤيته ·

ـ لا شك في ذلك ما دام قد أرسلنا نبحث عنك ونحضرك ·

قال لهما متسائلا :

ـ أهو ملك ؟

اجابه الفارسان :

ـ لا ، ولكنه شبيه بالملك ·

ما أن وصل الثلاثة الى باب الحصن حتى ارتفع صوت النفير أطلقه حارس من أحد الابراج فانفتح الباب من تلقاء نفسه وحين اجتازه الرجال أغلق بهدوء :

لم يتبين شيئا وسط الظلام ، وراح ، رغم ذلك ، يدير طرفه في شتى الارجاء ويرهف السمع عسى أن يرى ما كان يتوق الى رؤيته ، ولكنه لم يرِ.. شيئا ولم يسمع نأمة ، فوقف ينتظر بينما أخذت ضربات قلبه تشتد وتعنف وأطرافه ترتجف وترتعش ، فتمتم بصوت خافت :

ـ أهي النهاية ؟

لم يقدّر أنه سيسمعه أحد ، الا أن الفارسين الواقفين الى جواره في خشوع قالا له :

ـ بل هي البداية ، بداية البداية !

في تلك اللحظة اندفع من منحدر عال فارس أضاءت خوذتـــه وسيفه

الظلمة ، وشقت حجب الليل، وظل يهوي على فرسه فوق المنحدر الى أن وصل اليه فتوقف أمامه ·

عقلت الدهشة لسانه : من هذا الفارس ذو الطلعة البهية الذي يشق بلألائه أستار الظلام وينير الحصن انارة البرق الساطع ! والتفت خلسة وقد بهره منظره يسأل أحد الفارسين :

ـ أهو سيد الحصن ؟

فابتسم في أدب ، وهمس في أذنه :

ـ بل هذا كبير الحراس ·

كان يريد أن يسأله ماذا يريد منه ، ولكن كبير الحراس التفت الى مجموعة من الحرس كانوا يقفون وراءه تحجبهم عنه قامته الطويلة وثيابه الحمر الفضفاضة وترسه الابيض الكبير الذي يحمله في ذراعه ، وقال لهم :

ـ خذوه !

تنحى الفارسان ليفسحا المجال للحرس الذين اقتادوه في لطف بالغ ومضوا به بينما كان كبير الحرس يرقبهم في انتباه شديد ·

وأما ساروا به بضعة أمتار ندت عنه صيحة في اتجاه كبير الحرس :

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

سار كبير الحرس الهوينا ثم حاذاه واقترب منه حتى لامس بفمه أذنه وقال له :

ـ انك تشكو كثيرا من الملال والسأم ؟

قال محتجا :

ــ وماذا في ذلك ؟

ــ لا شيء ، ان علينا أن ننقذك مما أنت فيه ٠

كاد ينفجر غيظا وهو يرى هؤلاء الحراس محدقين به ، ورئيسهم يهمس في أذنه بنبرة هادئة عذبة مثل هذا الكلام ٠ قال له :

ــ اذا ستقضون عليّ ٠

ــ قلت لك كلا ، بل سننقذك مما أنت فيه ٠

ــ وكيف لكم بانقاذي ؟

ــ تمهل وسوف ترى ٠

عند ذاك اقتادوه الى أعلى الحصن ، وراحوا يسيرون حتى أفضوا الى كهف محفور في أعلى الحصن ٠ قال له كبير الحرس :

ــ ستهبط سلالم هذا الكهف في هدوء ، الى أن تفضي بك السلالم الى ساحة البلدة ٠

فصرخ في دهشة :

ــ ساحة البلدة ؟

ــ نعم الى ساحة البلدة ، وستستغرق المسيرة الليل بكامله ٠

قال له :

ــ وما بعد ذلك ؟

ــ لا شيء ، طبعا لا شيء ، وستمضي في الصباح الى عملك كعادتك ٠

تنهد كمن يتخفف من عبء ثقيل ، وهم بالنزول ، مقدرا أنه سيتخلص بذلك من هذا الكابوس الذي أخذ بخناقه • الا ان كبير الحرس استوقفه :

ـ هناك شيء صغير أريد أن اذكرك به •

ـ قل لي اني على استعداد للاصغاء •

ـ حين تنجز كل أعمالك وتنتهي من تناول الطعام ، سيأتي هذان الفارسان غدا ليحملاك الى هذا الكهف ، وبطرف اصبعه أشار الى الفارسين والكهف •

بدأت المخاوف تنتابه وأحس بخطر حقيقي أثار فيه الفزع :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ تقطع سلالم الكهف الى المدينة ليلا ، فاذا أصبح الصباح ذهبت الى عملك • وبعيد الظهر يقتادك الفارسان الى هنا وهكذا دواليك حتى بداية الابدية •

صاح بملء صوته :

ـ ولكن هذا فظيع !

ـ الم أقل لك اننا سننقذك مما أنت فيه وستتطهر وينتفي عنك الملال والسأم •

قال كبير الحرس ذلك وهو يهم بدفعه الى أغوار الكهف ، فالتفت اليه في نظرة أخيرة ، وقال ضارعا :

ـ وهل يتاح لي أن أرى أثناء ذلك سيد الحصن ؟

ـ لن تراه قبل أن تتطهر تطهيرا وسيستغرق ذلك الحياة بأكملها •

ودفع به كبير الحرس الى الكهف ووقف ينتظر أوبته في اليوم التالي •

الرجــل الذي صار غيمة

حين استدعاه المدير شعر بكثير من الدهشة · فليس من عادة المدير أن يستدعيه ، وانما تصل اليه أوامره وتعليماته عن طريق التسلسل · ومما زاد في دهشته أنه لم يتصل به عن طريق الهاتف ولا عن طريق رئيسه المباشر الذي يتصدر الغرفة حيث مكتبه ومكاتب زملائه في العمل ، هنا في هذه الوزارة الكبيرة ذات الطوابق الاربعة ، بل أرسل اليه آذنه الخاص يتسلل الى الغرفة ، ويسأل عنه الموظفين ثم يهتدي اليه أخيرا ويقف أمامه في شيء من اللامبالاة ، ليقول له :

ــ ان المدير يرغب في مقابلتك ·

ثم يخرج بسرعة دون أن يلحظ خروجه أحد ·

قام الرجل بتؤدة بعد أن طوى أوراقه . وتهامس الموظفون فيما بينهم :

ـ لعل قضية الشرود قد تناهت الى المدير ·

والحق أن هذا الشرود الذي لاحظه الموظفون والمراجعون عليه ، قد أخذ يزداد في الآونة الاخيرة على نحو يلفت الانتباه · فقد أخذ يهمل شيئا بعد شيء العمل المنوط به ، وهو قابع في احدى غرف هذه الوزارة التي يعمل فيها · بدأ ذلك أول الامر بداية يسيرة لا تكاد تلحظ ، كأنه نتيجة ارهاق أو تعب ، ثم راح يزداد مع مرور الايام حتى أن زملاءه وغيرهم من المراجعين صاروا يلاحظونه . وكانت أصواتهم وكلماتهم تعيده الى عمله سريعا ، وانتهى به الامر أخيرا الى انه لم يعد يشعر بما يجري حوله ، وكان اما كلمه أحد زملائه أجاب بكلمات مبهمة وأشار اشارات غامضة ، ولا شك في أن زملاءه قد حزنوا لشروده هذا وللوضع الذي آل اليه زميلهم ، فقد كانوا جميعا يكنون له الحب والمودة ·

لذلك فحين استدعاه المدير على مرأى منهم شعروا بالالم وخافوا أن يوجه المدير اليه كلمات قد تؤذيه وتجرح شعوره ·

صعد الرجل سلالم المبنى ببطء كبير ، فلم يكن ثمة ما يدعوه الى الاسراع · وكانت تظهر أمامه بين حين وآخر كوة من كوى السلالم فيتريث أمامها طويلا وهو يحدق في السماء عسى أن يرى الغيوم التي يحب · هل كان الرجل يحب الغيوم؟ أجل، وربما لا تعبر هذه الكلمة عن ذاك الهوى العنيف الذي يكنه الرجل للغيوم · فمن مظاهر الطبيعة الكثيرة المختلفة المتنوعة كانت الغيوم وحدهـا تأسر لبه وتستأثر بمشاعره ، فلا الجبال الشامخة المغطاة بالاشجار ، ولا الغابات الكثيفة ، ولا البحار في هيجانها وسكونها ، ولا الشمس الغاربة ، ولا

القمر الفضي تعدل في نظره الغيوم المتكونة في أديم السماء بقعا ذات حجوم مختلفة ، كبيرة وصغيرة ، كثيفة ورهوة ، سودا كالليل وبيضا كنديف القطن • وكان يديم النظر اليها ويتأمل أشكالها وتكويناتها وتلوناتها ، وكان يراها في شتى فصول السنة ، وانها في كل فصل . بل في كل يوم . بل في كل لحظة . لتتخذ شكلا خاصا جديدا ولونا أخاذا لا يشبه أي لون لها سابق • وكانت الشمس اذ تخترقها في بعض المرات تضفي عليها ألوانا جديدة ، فتحمر أطرافها حينا ، وتميل الى البنفسجي حينا آخر ، وتشف في أحيان غيرها عن زرقة السماء الصافية التي وراءها • وكان الرجل يحب الصفاء وكل ما هو صاف ، وكان يرى الغيوم تجسد الصفاء • أما أكثر ما كان يشده اليها ويحببه بها ، فقدرتها على التنقل من مكان الى مكان ، ومن سماء الى سماء ، فتعلو اذا طاب لها أن تعلو ، وتهبط حين تشاء ، وكان يحس بالريح تحتضنها وتمضي بها الى حيث تريد ، وهي مستسلمة لاكتاف الريح القوية او الضعيفة •

والواقع أنه لم يكن في حبه للغيوم وشغفه بها أي ضير ، ولو أن الامر اقتصر على ذلك لكان مجرد اهتمام بمظهر من مظاهر الطبيعة التي لا يحيط بها عد • أليس من شأن كل انسان أن يحب الطبيعة كما يشاء وأن يحب منها ما يشاء ؟ الا أن الامر لم يلبث أن تطور وأخذ مجرى آخر ، ومع مرور الايام نما هذا الشغف فصرف الرجل عن عمله ، وهاهو ذا ما يزال واقفا أمام الكوة يرقب السماء ويتأمل غيومها • واذ اسقط أحد السقاة فنجان القهوة وكأس الماء بجانبه انتبه الى ان عليه أن يتابع صعوده على السلالم ليصل الى غرفة المدير ، ولقد استغرق وصوله الى الطابق الرابع وقتا غير قصير •

حين دخل غرفة المدير فاجأته أضواء المصابيح تتلألأ فيها ، ودهش من النوافذ العريضة التي تحيط بطاولة المدير وبأرجاء الغرفة • كانت نوافذ رحبة واسعة عالية يشف زجاجها عن سماء لا حدود لها • ولبث واقفا في مكانه متعلقا

بصره بما تفسحه النوافذ أمامه • كان المدير منهمكا بتوقيع المعاملات ، وحين انتهى من ذلك رفع رأسه عن الطاولة وحدق فيه لحظة ثم تمهل قليلا وهو يقول لـــه :

ـ ايـــه ، وماذا عنك أنت ؟

بوغت الرجل بهذا السؤال ، ولم يدر كيف يجيب ولا عم يسأله المدير • وفي تلك اللحظة ، مرت في السماء سحابة ذات جمال أخاذ لمحها الرجل من النافذة القائمة خلف طاولة المدير ، فهتف يقول للمدير على حين غرة .

ـ انها لجميلة ، أليس كذلك ؟

وأضاف وهو يلتقط أنفاسه :

ـ هل رأيت مثلها في حياتك يا سيدي ؟!

استولت على المدير دهشة ثم انقلبت غضبا ثم ابتسم يداري غضبه ، وجاب الغرفة ببصره فلم يفهم ما يقوله هذا الرجل الواقف أمامه بأدب جم • قال له المدير بنبرة لا تخلو من حدة :

ـ عم تتكلم يا هذا ؟

كانت الريح قد دفعت السحابة الفريدة وطوحت بها الى مكان بعيد ، فأبدى الرجل ألمه وهو يقول :

ـ لقد غابت ، لقد اختفت يا سيدي !

اوشك المدير أن ينفجر غيظا ، وكاد يخرج عن طوره ، وبدت تتجمع في حنجرته كلمات السخط والتعنيف والتهديد • الا أنه مد يده وتناول علبة

السجائر وأشعل لفافة ، واستطاع أن يسيطر على أعصابه الثائرة • التفت اليه بعد حين يقول :

ـ لا شك عندي في أنك متعب ، وسأطلب الى الطبيب أن يمنحك استراحة •

واتصل المدير بأحد الموظفين الذي أحاله بسرعة الى الطبيب •

ومنح الرجل اجازة . ولكنه حين عاد ليستأنف عمله كان ما يزال يحب الغيوم • ولم يكن يدري لماذا منحه الطبيب تلك الاجازة ولماذا عاد اليوم • ذلك بأنه رغم رغبة المدير واصرار الطبيب لم يكن يعتقد أنه مصاب بأي مرض •

واستقبله زملاؤه ، بعد انقطاعه ذاك ، بكثير من الترحاب • فقد شعروا بفراغ كبير لغيابه ، ولا بد أن عددا منهم قد صار يحب الغيوم مثله بدافع العدوى • وكانت الغيوم ، ابان غيابه ، كأنما احتجبت فجأة من صفحة السماء • ولكن الترتيبات كانت قد اتخذت طوال فترة غيابه • لتخصيص غرفة له يعمل فيها وحده في مبنى الوزارة . ورغم حزن زملائه الشديد فقد اعتبر ذلك تكريما كبيرا له •

في هذه الغرفة لمح الطفل الصغير أول مرة •

كانت السماء يومذاك ملبدة بالغيوم ، والغيوم تتلون ألوانا فاتنة • ومن خلل الغيوم لمح وجهه الصغير وعينيه البنيتين الحالمتين وجسده الابيض الغض اللون ، ولكنه اختفى بأسرع من ومض البرق • قال في نفسه : « لقد رأيته ويستحيل أن أكون مخطئا » ! وبدت له الفكرة مدعاة للضحك • كيف يظهر طفل صغير بين الغيوم ؟•• وآثر الا يحدث أحدا بما رأى ، لأنه واثق كل الثقة أن الناس لن يصدقوه • ومع ذلك فقد كان على يقين مطلق أنه رآه بل كاد يلمس شعره المسترسل •

في ذلك الشتاء تكررت رؤية الرجل للطفل الصغير · كان شتاء قاسيا تلبدت سماؤه بالغيوم شهورا طويلة · ومع اطلالة نسائم الربيع أخذت السماء تصفو يوما بعد يوم ، ورأى الرجل نفسه ذات صباح مدفوعا الى أن يفتح نوافذه للنور والهواء · ويومذاك وكان مستغرقا في شروده على عادته ، سمع صوت نقر خفيف على طاولته ، والتفت جهة الباب ، لم يكن أمام الباب أحد · وتكرر الصوت الخفيف· نظر الى طاولته فرأى الطفل ذاك بمحاذاتها لايكاد رأسه يبلغها·

أحس بغبطة عارمة ، كان الطفل نفسه الذي طالما رآه بين الغيوم واقفا بالقرب منه على بعد خطوة واحدة من طاولته يضحك · كان وجهه وعيناه وفمه تضحك، وشعر كأن العالم كله يضحك في سعادة أمامه· قال للطفل المتشح بالبياض:

ـ ماذا تريد ؟

ثم سأل نفسه : « أيستطيع هذا الطفل الصغير أن يتكلم ؟ » وأجابه الطفل بصوت ضاحك :

ـ بل ماذا تريد أنت ؟ كنت تنظر الي دائما ·

فاجأه السؤال ، وراح يتأمله بحسرة : لو كنت تزوجت منذ بضعة أعوام .. وحسب لكان لي طفل في مثل سنه · وانقبض صدره · ولكن ضحكات الطفل صرفت عن نفسه كل غم · وراح ينظر اليه في حنو ولم يجرؤ أن يمد يده ليمسح شعره ·

قال له الطفل :

ـ أليس لك أولاد فألعب معهم ؟

ـ كـــــلا ·

ـ أليس لك أم تعيش معها ؟

ـ كـــــلا ٠

ـ اليس لك أخوة صغار ؟

ـ كـــــلا ٠

ـ ومن يوصلك الى هنا ؟

ـ لا أحد ٠

ـ ومن يطعمك اذا جعت ٠

ـ لا أحد ٠

ـ ومن يعتني بك اذا مرضت ؟

ـ لا أحد ٠

ـ وماذا تفعل هنا ؟

ـ لا شيء ٠

ـ واذا ضجرت ؟

ـ أنظر الى الغيوم !

صمت الرجل والطفل كلاهما برهة ٠ ثم قال الطفل :

ـ أتريد أن تصير غيمة ؟

تردد الرجل بعض التردد وعجب من هذا الاقتراح الساذج الجريء ٠ ثم هز رأسه وقال بصوت خافت :

ـ نعم ٠

وشرد ذهنه . فتصور نفسه يتنقل حرا في الكون وتساءل : « أتراني أجد في ذلك الخلاص ؟ » . قطع عليه الطفل شروده وقال له :

ـ الامر بسيط جدا .

ولم يجب الرجل ، فألح الطفل يقول :

ـ ما عليك الا أن تمسك بيدي وتمضي حيث أمضي .

وامتثل الرجل له ومضى معه يجوب أطباق الفضاء .

□ □

كمـا في الاحلام

قلت له : انني اسمع خلف الباب أصواتا خافتة ما أشبهها بضجيج يتناهى الى مسامعي من مكان بعيد ، موغل في البعد ٠

كانت الانوار مطفأة وباب الدار موصدا ، وجميع أفراد أسرتي يغطون في سبات عميق ٠ الحي هادىء بعيد عن كل صوت أو حركة ، فليست تمـــر فيه أية سيارة أو شاحنة في هذا الوقت المتأخر من الليل ٠ قلت له : ليس من عادتي أن أستيقظ في مثل هذه الساعة ، ولا بد أن الصوت هو الذي ايقظني ٠

لم يفتح فاه ، ولم يتلفظ بأية كلمة ، وكتفى بأن هز رأسه ٠ قلت في نفسي : « هل أضيء المصباح الكهربائي الموضوع بجانب فراشي ؟ » ولكنني

شعرت ببعض الخوف كما خشيت أن أوقظ زوجتي النائمة · وقلت : « لا شك في أني واهم ! » · وفي الواقع فلم أعد أراه أو أسمع أي صوت ، لكأنما توقفت الاصوات فجأة فلم يبق لها من أثر ·

تساءلت وأنا أحاول أن أنام ، بينما كان وقع الصمت والهدوء والسكينة واضحا في أذني ، أتراني نسيت ان أتناول واحدة من الحبوب المنومة التي اعتدت ان أبتلعها بعد العشاء ؟ وفكرت قليلا ، ولكنني كنت واثقا أنني تناولت واحدة منها ، صفراء ، وأنا أدخن لفافتي قبل النوم · ومن هنا فقد دهشت كثيرا ، فمن عادة هذه الحبوب أن تحمل الي النوم ساعات متصلة لا أستيقظ خلالها البتة ولو أحاطت بي أعنف الاصوات · ورغم الهدوء المنتشر داخل المنزل وخارجه فقد أحسست بشيء من القلق ، كأنما مس طمأنينتي طائف لا أعرفه · ولم يكن من اليسير علي أن أعاود النوم بسرعة · الا أنني قلت في نفسي : « لا بد أن تنام ، فعليك أن تنهض في ساعة مبكرة لتذهب الى عملك ! » ·

سيارات ، رتل من السيارات يسير في الشارع العريض · يتناهى اليك صوتها وانت جالس في مكتبك · الزمن بعيد المغيب · ومع أن الشارع الذي يقع فيه المكتب يعج بالسيارات فقد كان لهذا الموكب ما يلفت اليه الانتباه · كان ثمة أكثر من اشارة تدل على مسيرة هذا الموكب ، لماذا تصاحبه هذه الطلقات النارية ؟ ترتعش في فراشك وتتقلب · تغير ضجعتك ، ويستمر مرور الموكب من بعيد ، تسمع ما يرافقه من أصوات · أخيرا تنهض من أمام الطاولة ، وتدفع الكرسي الى الوراء ثم تفتح النافذة وتطل منها · الموكب يمر من شارع آخر يتقاطع مع هذا الشارع · تلمح من بعيد سيارات ، عددا كبيرا من السيارات يسير ببطء ، كل سيارة تفيض بمن فيها من الناس ، أناس ملثمون يحملون الرشاشات ، وعلى جوانب السيارات باقات من الزهر ، الزهر الابيض الحزين ، وترى أعلاما ، عددا وافرا من الاعلام ،

ولكن ظلمة الشارع تحول دون تبين هويتها · الا ان اللون الاحمر يشع فيها ، اللون الاحمر القاني ظاهر واضح يلتمع في الظلام . يضيء الظلام ، فتتعلق به عيناك ، تتوقف حركة المرور ، ويستمر الموكب في مسيرته البطيئة . خمس دقائق بل ربع ساعة . يتلاشى الزمن · كأن ليس للموكب من نهاية · الى أين يمضي ؟ في الشارع يتجمهر الناس ، يتوقفون عن الحركة ، وكذلك سياراتهم · وسيارات الاجرة · يخرج منها الناس كالموتى · مصفرة وجوههم ، ثم يمدون أبصارهم ويقفون في صمت وخشوع لا ينبسون بحرف · ما هـذا الصمت الدي يطبق على الجو ؟! تغلق النافذة وتعود الى عملك · ينتهي الدوام وتتجه الى منزلك · طعام العشاء جاهز ، تدخن لفافتك بعده ، وتأوي الى سريرك لتنام ·

كل من في البيت نائم يغط في سبات عميق ، أنت أيضا نائم بفضل هـذه الحبوب السحرية ، تتقلب في هدوء في مضجعك ، تنام وتستيقظ ، ثم تعود فتنام ·

أزيز الطائرات يملأ الفضاء · ما من شك ، هذه المرة ، في أنك تسمع صوت الطائرات تحلق في السماء ، في سمائك ، فوق منزلك ، فوق غرفة نومك ذاتها ، غرفة النوم قريبة من السماء في أعلى طابق من البناية الكبيرة · تحوم الطائرات في الجو ، بعد قليل يبتعد الصوت ، يختفي ، لقد حلقت في الاجواء العليا · النجوم المضيئة تتيح لك أن ترى الخط الابيض الذي تسحبه وراءها ، صوت الصافرة يدوي في أرجاء المدينة · متى يتوقف هذا الصوت ؟ أبواب المنازل تفتح ، المزاليج تصر خلف الابواب ، وتغلق المنازل · على سلم البناية ضجة غير مالوفة · يشتد صفير الصافرة ، عواء أصم · في السماء تلتمع شظايا وبروق · يتلو اللمعان انفجار · الدوي في كل مكان · لحظات ويعود الصفير بطيئا هادئا ·

قلت : لا بد ان أنهض لأشرب كأسا من الماء • تسير بتؤدة كيلا توقظ أحدا • تسير في ظلام المنزل بلا نور • ما الحاجة اليه ؟ انك ان أنرت المصباح استيقظ كل النائمين • وعلام توقظهم وهم ينعمون بنوم هادىء لذيذ • تعرج وأنت عائد الى سريرك على غرفة الاطفال ، تطل من الباب وتقف على رؤوس أصابعك • سريران صغيران يرقد فيهما طفلاك • ترى أحدهما وقد نحى الغطاء عنه وبسط ذراعيه ورجليه ، عيناه مطبقتان يتنفس الصحة والراحة والاطمئنان أما الثاني فمتقوقع على نفسه ، قد ابتعد عن الوسادة وصار وسط الفراش • تبتسم • تخامرك سعادة حقيقية وفرح الهي • في العتمة تلمح في جانب السرير نقطتين مضيئتين ، فتتسمر في مكانك ثم لا تلبث أن تضحك وأنت تجاهد نفسك في خنق الصوت • تانك هما عينا الكلب القطني الصغير الذي يصر الطفل على أن ينيمه الى جانبه كل ليلة • لا بد أن يضعه على وسادته قبل أن ينام • وتمضي الى فراشك • تتجاذبك السعادة والخوف ، تتمزق بينهما •

قلت له : أين أنا ؟ فلم أجب أول الامر • ولكنني حين الححت خرج عن صمته وقال : أنت في منزلك • كادت الدهشة تصعقني • في منزلي ؟ يستحيل أن يكون هذا منزلي ! فلم يسبق لي أن رأيته • هذه الحجرة الواسعة ليست منزلا لي • أشبه بالحظيرة ، جدرانهـا مطلية بالكلس الابيض ، وسقفها ؟ ما أشبهه بسقوف الاقبية • ثم قال لي أنظر الى الباب كي تتأكد • ومم أتأكد ؟ وفي الواقع فقد كان الباب غريبا يلفت الانتباه، وما هكذا العهد بأبواب المنازل• قلت في نفسك : لماذا صنعوا الباب على هذا النحو ؟ لم يكن يتألف من مصراعين بل من مصاريع عديدة • كنت ممددا على فراش مبسوط فوق الارض الترابية ، أما هو فكان جالسا القرفصاء في أحد الاركان ، ممسكا باحدى يديه لفافة التبغ التي اعتاد ان يلفها بأصابعه المعروقة ، وباليد الاخرى مسبحته الصفراء •

كان صامتا كالقبر · كيف يغلق هذا الباب عادة ؟ تساءلت عن ذلك قبل أن تتبين القضيب الحديدي الرفيع الموضوع في زاوية الغرفة بجانب الباب·وأدركت آنذاك أن هذا القضيب انما يستخدم لاغلاق الباب · فيوضع بشكل عرضاني . يدخل أحد طرفيه في حلقة ويولج القفل بين رأسه المستدير وبين الحلقة المفروزة في الحائط ، ويتم اغلاق الباب ·

في هذه المرة عاد الصوت ، كان صوتا خافتا أشبه شيء بالهمس ، ولكنك تبينته مع ذلك كله · صوت رجلين يتحدثان خلف الباب الخشبي بل صوت مجموعة من الرجال · ما الذي جاء بهم الى هنا ؟ وعم يتحدثون ؟ ورفعت رأسك عن الوسادة · كان ضوء مصباح الزيت ينير الحجرة انارة ضعيفة ، واذ رفعت رأسك ارتسم ظله على الحائط ، وكأنما سمع الرجال صوت حركتك الواهية في الفراش فصمتوا فجأة · ملت برأسك الى حيث كان ، وعاد صوت الرجال يتناهى اليك ضعيفا متقطعا · آلمك ذلك · نهضت على حين غرة ، وسرت حافي القدمين · لم يكن بجانب الفراش أي أثر لحذاء ، لسع البرد قدميك ، وقطعت خطوات كثيرة قبل أن تبلغ الباب · لا شيء سوى الصمت · عد الى فراشك ونم · ويستعصي عليك النوم ، يستعصي أمدا طويلا تسمع خلاله صوت سعاله · ويضيء الثقاب الذي يشعل به لفافته ظلام الحجرة غير مرة · انفجارات عديدة في الجو · القنابل تتساقط ، ثم تهدر المدافع ، المدينة مهددة محاصرة تحترق ، ترى ذلك كله من ثقب جدار من جدران الحجرة ·

أما الآن فقد صار صوت الرجال الواقفين خلف الباب قويا واضحا · لم يكن وشوشة وهمسا ، كان صراخا متحديا · تهب مذعورا ، فتنتصب في فراشك· يقولون لك في نبرة فيها سخرية وتحد :

ـ دافع عن أطفالك !

لا مجال للتردد او التأجيل . الحجرة المنخفضة التي تقيم فيها أضيئت بالانوار . وتهرع الى الباب . الريح لا سواها قادرة على اسقاطه . وتراه يتخلع ، يكاد يتهاوى . تسارع حافي القدمين الى اسناده ، ثم تعود . لقد اشار اليك أن انتعل حذائي . وتنتعله على عجل . قلتَ له : حذاؤك واسع فلم يجب . الحذاء يغل حركتك ويعرقل مشيتك . تنادي :

ــ يا قوة الاجداد !

الاجداد ــ تراهم ــ في قبورهم لا يتحركون ، ولكنهم يراقبونك ، عيونهم لم تمت ، عيونهم الحية ماثلة في هاتين العينين الثابتتين ودخان اللفافة يلفعهما . تثبت المزلاج الحديدي الطويل بكلتا يديك ، وتبسط ذراعيك على جوانب الباب الخشبي كله .

يركل أحدهم واحدا من المصاريع فيتهاوى قسم كبير منه . وتمتد رجل أحد هؤلاء . ليست رجلا عادية بل جزمة كبيرة طويلة . تلتفت اليه جزعا ، لأول مرة يشير الى سيف معلق في أحد أطراف السقف . تفهم اشارته ، تسارع الى السيف . تتفحصه ثم تقذف به الى الارض . وتجأر شاكيا :

ــ السيف صدىء ، لست بحاجة اليه .

خلف الباب تسمعهم يتجمهرون . مصاريع الباب كلها مهددة الآن . دفعة واحدة . لا يحتاج الا الى دفعة واحدة كي يتهاوى وينهار .

قلت لك تكلم . ألا تريد أن تتكلم . وتمد يدك الى وجهك فتجده مبللا . هل جرحت ؟ لا ، هذه دموع . وتتفل على الدموع .

وينظر اليك الرجل الساكن الصامت . ثم يهدر صوته آخر الامر ، منبعثا من مكان سحيق :

ـ أنظر الى ولديك !

تتساءل : ولكن أين هما ؟ وفي ظنك أنهما في غرفة النوم كانا ٠

يتناهى اليك صوت أنين طويل حاد لا يلبث أن يتقطع في استغاثات متتالية ٠ تنادي وتستغيث :

ـ يا قوة الاله ، ساعديهما !

لا شيء سوى الصمت ٠ يقول لك الرجل الجالس في العتمة بصوت كنصل سكين حاد رقيق :

ـ تعلم كيف تموت ٠

أصرخ في وجهه بملء صوتي :

ـ وما الموت ؟ انني ميت ٠٠٠ ميت منذ زمن طويل ٠

تختفي سبابته التي كان يؤشر بها ، ثم يختفي وجهه وجسمه ، و تغوص أنت في دوامة نهر عميق الغور ، النهر هائج فكيف تلقي بنفسك فيه - لست بعيدا عن الدوامة ، الذوامة تقترب منك وأنت تحاول الهرب ، وأخيرا تتغلب عليك فتجرك الى الاعماق ٠ تقول لك : سأريك عجائب الاعماق ٠ وفي آخر رمق منك تصرخ :

ـ لا !

تتلوى غيظا وخوفا ، ألما وحقدا ٠

ـ لا !

تتحرك أصابعك النحيلة ٠ كأس الماء جاهزة وكذلك الزجاجة الصغيرة ٠ تتناول حبة أخرى وتفقد الوعي ٠

الدمـاء

على ذروة الجبل ، فوق قمته العالية ، بعيدا عن المدينة الصاخبة ، كان ابراهيم جالسا · لم يكن من عادته قط أن يتنزه في هذه المنطقة الهادئة الساكنة، الا أنه في هذا المساء ، وكان الحزن والالم قد امتلكا قلبه ، مضى نحو هـذه الجبال بعد أن اجتاز سهولا عريضة ، ممرعة ، تتموج فيها سنابل القمح ، وترعى فيها قطعان الخرفان والاغنام · ولم تلبث قدماه أن أفضتا به الى سفح هذا الجبل الذي تتسلقه أشجار التفاح وشجيرات الكرز ، كانت هذه تنوء بالبراعم والثمار · وكان النسيم يتغلغل بين أوراقها ، فينبعث منها حفيف شجي يملأ الفضاء بنغمه العذب ودويه الرقيق ، ويحمل معه عبقا ينفذ الى المسام ويداعب الجسم برهافة ·

سلك ابراهيم الدروب الجبلية يصعد في هدوء وأناة وهو يتمتع بجمال مايرى وعذوبة ما يسمع ، وبعد مسيرة طويلة جلس فوق هذه الصخرة الملساء الرابضة في الاعالي ، وانبسطت أمام ناظريه السهول ، وخلف السهول بدت المدينة الواسعة : كومة من الحجارة المرصوفة والطرقات السود تسحق فيها المآذن و القباب، وكانت هذه تكتسب ألوانا متعددة متباينة اذ تنسكب عليها أشعة الشمس الغاربة .

لم يدر ابراهيم كم مكث في جلسته تلك ، وحين همّ بمغادرة المكان لم يكن قد تخلص من كل ما يشوب نفسه من ألم . ولكن كان عليه أن يعود على أية حال ، فقد غابت الشمس وليس يستطيع أن يظل مقيما ههنا على قمة الجبل الى الابد ، رغم كل الطمأنينة التي سكبتها في نفسه هذه المشاهد ، لهذا فقد قام متباطئا وهو ينفض الاشواك العالقة بثوبه ويلقي نظرة أخيرة على المرتفعات الرائعة والاضواء تتعانق عليها وتتداخل فيما بينها ، وهي تتلقى شبح الليل يزحف نحوها ببطء .

أحس ابراهيم بمتعة حقيقية وراحة عميقة ، وشعر بما يشعر به من يتحرر من عبء كان يرزح تحته . وتساءل في سرور .

ـ « أتراني تحررت حقا » ؟

وكان هذا التساؤل كافيا لأن يعيد الى نفسه كثيرا من الصور والمشاعر التي قدر انه قد تخلص منها الى الابد ساعة خلف المدينة وراءه واتجه مصمعدا في هذا المكان ، ولكن هاهو ذا يجابه ، اذ يولي المدينة وجهه ، تهدمه الذاتي الشاخص هناك في كل شوار ع المدينة واحيائها ، في منزله ، بين جيرانه وأهله وذويه .

وقف برهة دامي القلب ، لقد كانت الفترة الجميلة التي قضاها هنا أشبه

شيء باجازة قصيرة الامد ، بحلم ، بغيبوبة مؤقتة ، بوميض برق يخطف الا بصار ثواني معدودة ثم يتلاشى سريعا ليلف الظلام العالم ·

وسمع صوتا أهاب به أن توقف · فتلفت حوله يتبين مصدره : أمن بين الصخور الصم انبعث أم من خلل السحاب أم من أعماق ذاته ، من قلبه الذي يغشاه الحزن القديم كلما حدق مليا فيه ؟ ولم يتح له أن يتبين مصدر الصوت ولن يتاح له ذلك أبد الدهر . فقد كان ينبعث من كل مكان ومن لا مكان · وأرهف السمع ، كان كل ما فيه يصغي حتى أطراف أصابعه ·

وسمع من يقول له :

ـ يا ابراهيم ، يا ابراهيم ! ··· الزم مكانك !

وتوقف في مكانه لا يريم ، وقد أذهلته نبرة الصوت الحميمية الآمرة ·

وتكرر القول هادرا :

ـ أنقذ أبناء بلدتك من العار الذي فيه يعيشون ·

وندت عن ابراهيم زفرة تجسدت فيها كل حسرات قلبه ، وقال في أعماق نفسه :

ـ « ليتني أستطيع ذلك » ·

وسمع من يقول له :

ـ « اذا كنت تتمنى ذلك أنت ، فأنا آمرك به ! »

وأضاف الصوت بينما الرعد يزمجر ، واختلط الرعد بالصوت في سمع ابراهيم والتبسا عليه :

ـ في مكان كهذا المكان أو شبيه به ، دعي ابراهيم لأن يضحي بابنه اسحق كيما يثبت صدق ايمانه ٠

قطعت الامطار مسيل الصوت وطغت عليه ٠ مياه ٠ تتساقط المياه من كل جهة ٠ فوق رأسه وكتفيه وقدميه ٠ مياه متلاصقة ، ممتدة كالقصب والخيزران تصل الارض بالسماء وتملأ ما بينهما ٠ والسماء مغطاة بسحب داكنة يتراكم بعضها فوق بعض فتشكل خيمة من المياه تتهاوى بعنف على الصخور وفي الممرات والشعاب والدروب وتغمر ابراهيم وما حوله ٠

وامثا تراخت حبال المياه تابع الصوت في عذوبة :

ـ وأنت مدعو لمثل ما دعي اليه !

قال ابراهيم في نفسه :

ـ « ولكن ليس لي ولد فأضحي به » ٠

وتلفت فيما حوله يحاول أن يبصر في العتمة كبشا يكون فيه الفداء ٠

ـ لا تحاول أن تبحث عن كبش فلقد ولى زمن المعجزات وها أنتم اليوم ـ تعيشون في ملكوت الانسان ٠ قدم نفسك فداء عن مدينتك المتسخة المجللـة بالعار ٠

أحس ابراهيم بقشعريرة وهو يستعيد في نفسه كلمة الفداء فارتعشت أوصاله من وقعها ٠ ما اكثر ما فكرت في ذلك فلم تهتد الى طريقة تزيل بها العار عن مدينتك وساكنيها ٠ ولكن هاهو ذا الطريق يتضح أمامك ويستبين ، ومـا عليك الا أن تمضي فيه قدما ٠

توقفت الامطار فجاة وانقشعت الغيوم ، وبدا وجه السماء ، في مطلع الليل بهيا صاحيا صافيا ، تتناثر على أديمه النجوم متلألئة وضاءة تلتمع ٠

كان من اليسير على ابراهيم أن يسلك الدروب التي ستفضي به الى منزله التائه بين آلاف المنازل المشابهة له في المدينة الكبيرة ٠

حين أطفأ النور في غرفته وهو على أهبة أن ينام داهمه الصوت كما الكابوس ٠

ــ ينبغي أن تغسل بدمك أدران المدينة : الخوف والجبن ، الخسة والضعة ، والهزيمة والعار ٠ فلتتعمد المدينة بدمائك ولتغتسل بها لتتطهر الى الابد ٠

وتخيل ابراهيم دمه الاحمر يسيل بغزارة ، شلالا أحمر قانيا ، يسيل في الطرقات ويجرف ما يصادفه أمامه ، ويغسل أرجاء المدينة غسلا ويطهرها تطهيرا ، ويقضي على من يعترض سبيله ، فلا يدع حيا الا الاجنة في أرحام أمهاتها ٠ فخفق قلبه خفقانا شديدا ، أهذه هي الرسالة التي أنيطت به اليوم وهل هو كفء لها ؟

وقام في الظلمة يتلمس سكينا ٠ ولم يبحث طويلا فقد امتدت نحوه يد حانية بسكين صغير وسمع من يقول له :

ــ لا عليك الا أن تقطع شرايين يديك كلتيهما ، وهذا يكفي !

وتمتم فيما يشبه الصلاة :

ــ سأقطع شرايين يدي كلتيهما ٠

كانت أنوار المدينة تلتمع وراح بعضها ينطفىء رويدا رويدا ٠

ــ يا ابراهيم ، يا ابراهيم ، ستكون انسانا عظيما ، ستكون بطلا وشهيدا ٠

ابتسامة الظفر ، ابتسامة النصر ، ابتسامة الشهادة ترتسم على شفتيه ٠

ترتعش روحه بموسيقا عذبة ، سيسمو على ذاته ، على الحياة ، على تعلقه بالحياة وحرصه عليها ·

نصل السكين حادة واهاب جسمه رقيق ، ليس عليه الا أن يمرر السكين برهافة على الشرايين كما تمرر القوس فوق أوتار الكمان ·

وبجرأة ورجولة وايمان ، ضغط ابراهيم السكين على معصمه وانتظر هنيهة · كان يريد أن يرى الدم ينير باحمراره ظلام الغرفة ، ثم انتظر هنيهة ثانية وثالثة · ولكن الدم لم ينبجس مع أنه أحس بحد السكين يمس جلده · وضغط مرة ثانية وثالثة ثم تحول الى اليد الاخرى ··· لا شيء · كان كمن يحزُ بالسكين حطبا جافا أو صخرا أملس · وكرر المحاولة في ضيق وألم - وأخيرا ألقى السكين على الارض فدوى لارتطامها صوت كالعويل ·

ثم تمدد فوق الفراش وطمر وجهه في الوسادة وأغفى ···

الفردوس

حين أطل من بعيد ، اول مرة ، فوجىء برؤيته • فما كان يتوقع زيارة أي انسان في مثل هذا الوقت المبكر من النهار ، في هذه المنطقة المنعزلة من الجبل ، حيث كان يقيم مع أسرته الصغيرة • ولسبب ما لا يستطيع تحديده قر رأي الاسرة هذا العام على اختيار هذا المكان الهادىء وتمضية اجازة الصيف فيه •

وفي الواقع فقد توالت الايام في هذا المكان الساحر دون أن يشعر أحد بمرورها • كانت أياما ممتعة هادئة ، فالهواء العليل والمناظر الطبيعية الخلابة، والهدوء الذي يخيم على الجو، والبرودة اللذيذة التي تثير الارتعاش والانتعاش ، والاستسلام لاحضان الطبيعة تحت اشجار السرو والصنوبر ، والليل المستحم

بضياء القمر ولألاء النجوم ، والسماء القريبة الدانية من سطح الدار حتى ليكاد الانسان يلامسها ، والدار الغافية أبدا بين أشجار التفاح والكرز والكوخ ، وزقزقة الاطفال _ أطفاله _ المختلطة بزقزقة العصافير ، والجلوس الى الاصدقاء والاحبة ساعات طويلة ، كل ذلك جميعا كان يميز هذه الايام بأصباحها العاطرة وأمسياتها البليلة ، ظاهرة واحدة أقلقته فجأة وخلّفت في نفسه أخاديد بعيدة الغور ، تلك هي ظهور هذا الرجل النوراني غير المتوقع · بدا له ، وهو واقف وحده على الشرفة ، كأنما كان يهبط من بين الغيوم بردائه الابيض السابغ الذي يمس الارض مسا رقيقا ، وخيل اليه لهنيهات طويلة أنه واهم أو أنه يرى رؤيا ، الا أن ما يراه لم يكن حلما أو وهما ، فسرعان ما قطع الرجل الملتحف بالبياض قمم الجبال البعيدة وخلف الضبا بوراءه ، كان يسير بتؤدة ، كأنه يسير على المياه ، ولكنه اجتاز المسافات بسرعة غريبة وراه ، آخر الامر ، يحاذي هذه المنطقة القريبة منه ثم يتريث طويلا ويتجه نحو منزله في تصميم ، فقدر ثم أيقن أنه اياه يقصد فليس في هذا المكان كله سوى منزله وليس في المنزل سواه ·

واستبانت ملامح الرجل ، فاذا هو شاب وسيم الوجه أشقر الشعر ، ذوائبه مسترسلة على كتفيه العريضتين ، وعلى فمه ترتسم ابتسامة تنير وجهه النحيل ، وبدت له قامته طويلة مستقيمة · وكان ثوبه الابيض الناصع يكسوه جلالا ورقة وبهاء ·

ومشى الشاب يؤم المنزل في وقار ، فسلك توا الدروب المفضية اليه ، بينما كان الرجل يتابعه شاخص البصر معقود اللسان ، مسمرا في مكانه · وانتهى الى باب المنزل الحديدي ، ولما فتحه تناهى اليه صوت صريره ، وصعد السلم الحجري الحلزوني بدرجاته العديدة المفروش بأوراق الصنوبر الذوابة حتى انتهى الى الشرفة حيث كان الرجل واقفا ، فتريث الشاب : لم يكن يبدو عليه

التعب رغم المسافات الشاسعة التي قطعها . ومع ذلك فقد بدا كمن يسترد انفاسه · وبعد لحظات حدق في وجه الرجل ثم غض طرفه فاحمر خداه ، وأخيرا رفع راسه وقال وكان في صوته نبرة موسيقية عذبة :

ـ المكان جميل !

لم يتمكن الرجل من اجابته ، كانت الدهشة ما تزال مستولية عليه ، فتابع الشاب وهو يدير في المكان عينيه الزرقاوين النيرتين بلون السماء وصفائها :

ـ كل ما في المكان جميل حقا ·

قال الرجل بصوت لا يكاد يسمع :

ـ نعم ·

ولم يستطيع أن يضيف حرفا آخر ·

تطلع الشاب من فوق كتفي الرجل الى بهو الدار الصغيرة · كان الباب مفتوحا وتطلع الى الغرف المتواضعة النظيفة المرتبة · ثم قال :

ـ البيت نظيف ، جميل ، ساحر ، وما حوله كذلك ·

هز الرجل رأسه موافقا ·

واستدرك الشاب يقول :

ـ انني أعرفه معرفة تامة ، فقد كنت حاضرا يوم كوّن ، ما أشبهه بالفردوس ·

زفر الرجل زفرة الضيق والارتباك ، فسارع الشاب الى القول :

ـ ولهذا فانا أعلم أنه لا يحتاج الا الى شيء واحد ·

وتجرأ الرجل على سؤاله ، وقد بدأ يساوره بعض الضيق :

ـ وماذا عسى أن ينقصه ؟...

قال الشاب مقاطعا :

ـ تمهل ، فأنا ما اجتزت هذه المسافات كلها وما قطعت هذه الجبال والوهاد الا لأجعله كاملا في عينيك . انه بحاجة الى هذا .

وتحركت يده اليسرى تحت الثو بالسابغ ، فاذا الثوب ينتفخ ، وبصعوبة كبرى أخرج الشاب ما كان يخفيه بين طيات ثوبه .

ـ ما هذا ؟

ـ ساعة ! أرأيت ؟! ليس في هذا المنزل ساعة .

وتساءل الرجل :

ـ ولكن اتراني بحاجة اليها ههنا ؟

مد الشاب يده وقدم للرجل الساعة وهو يقول :

ـ هذا ما كان ينقص هذا المكان ولا شيء سواه .

ثم اضاف بلهجة حازمة :

ـ علقها في صدر البهو . ان لها صوتا لطيفا ، وستؤنس هدوء هذا المكان ووحدتك فيه .

تناول الرجل الساعة مكرها ، وتراجع الشاب في أدب جم ولم يلبث أن عاد من حيث أتى .

حين علق الساعة في صدر البهو ، كما أمره الشاب ، شعر بسرور عظيم ،

واعتبر أفراد الاسرة ذلك اليوم من الايام المشهودة في حياتهم ، فراح كل منهم يتأملها ، على طريقته ، ويطيل فيها النظر ويدقق الرؤية ، ويبدي عجبه بها ، ويتراجع الى الخلف ليتأملها أو يقف مواربة لينظر اليها . ولم يلبثوا أن ألفوها حتى أنهم نسوا وجودها أو تناسوه • وحده ظل مرتبطا بها ، متصلا سمعه بدقاتها ، شاخصا ببصره الى عقربيها وهما يدوران دورتهما الابدية . واتخذ مجلسه غير بعيد منها ، وكان يحس بتكتكة رقاصها كما المطارق على العظام • ومنذئذ أدرك أن أنفاسه معدودة محدودة • وكان صوت دقاتها يتناهى اليه وهو نائم في سريره ، وتفاقم شعوره بوجودها حتى لكأنها خصم عنيد . كان يشعر أنها تستل منه ، برهافة وبرودة ، شيئا لا يستطيع أن يحدده . وأدرك على حين غرة أن شعوره بوجودها ومتابعته عقاربها قد صرفاه عن التمتع بالطبيعة الجميلة التي كانت تحيط به . وعلى هذا النحو هبط الخريف دون أن يتوقع هبوطه بمثل هذه السرعة ، ومنذ أن تعلق بالساعة صار يشعر كلما تقاطع عقرباها أحدهما بالآخر ، بوخزة أليمة ، كأنما العقربان شفرتا سكين حادة تقتطع قطعة من لحمه •

وعزمت الاسرة على مغادرة هذا المكان الجميل الهادىء ، مع اطلالة رياح الخريف ، واصفرار اوراق بعض الاشجار ، فبدأت تعد للعودة عدتها •

□ □

حين رآه قادما من بعيد للمرة الثانية ، كانت الاسرة قد ضربت للرجوع الى البلدة موعدا واتخذت أهبتها لذلك • وقف الرجل وحيدا على الشرفة يترقب وصوله • كان الالم يعتصر فؤاده ، والكآبة ترتسم على وجهه ، لم يستطع أن يتبين سبب ألمه في هذا اليوم ، وتمنى في تلك اللحظة ذاتها لو يحطم الساعة ويهشم وجه الشاب الوسيم ، ولكنه كان يعرف أن تحقيق ذلك مستحيل •

وانتظر على الشرفة طويلا وهو يرتجف كورقة في مهب الريح · وآخيرا أطل بثوبه الابيض السابغ ، ولما دقق النظر فيه وجد نفسه أمام طفل صغير يتلألأ ضياء وبهاء · ولاحظ أنه يمسك بيمينه شيئا شبيها بالعصا ، أما حين داناه فقد تبين أن ما يمسكه بيده ويتوكأ عليه لم يكن عصا بل سيف ، سيف من نار يتوهج ، صعقته الدهشة فكاد ينسى آلمه ·

قال له الطفل الصغير :

والآن هيا !

بدا على الرجل أنه لم يفهم ، لعله تظاهر بذلك · فكرر الطفل في رقة ودماثة :

ـ هيا ، فقد أزف الوقت ·

صاح الرجل في دهشة :

ـ ولكن ··· الى اين ؟

رفع الطفل الصغير سيفه فتوهج والتمع التماعا عظيما في ضوء الشمس البازغة وكأنه قطعة من لهب ، قال له .

ـ الى هناك !

لم يستطع الرجل أن يتمالك نفسه أو يسيطر على أعصابه · شعر بالتحدي والظلم فصرخ :

ـ لا ، لا أريد ذلك ·

لم يزد الطفل الصغير على أن يلوح بسيفه الكبير في الهواء كأنه يلوح بورقة · عند ذاك جثا الرجل على ركبتيه ، وقال في آلم :

ـ أرجوك ، دعني ههنا ، فقد كنت سعيدا ·

في تلك اللحظة عينها دقت الساعة ، فنظر اليها الطفل وكذلك الرجل ولاذا بالصمت ، صمت طويل مديد كأنه موصول بأعماق الابدية ·

قال الرجل في سره : « هذه الساعة الملعونة ، ليته لم يحضرها الي ! » وكأنما استمع الطفل الى ما قال ، فابتسم وأجابه :

ـ لم يكن منها بد ، ومع ذلك ···

ـ قال الرجل :

ـ ماذا تقول ؟

ـ لا شيء ·

ورفع الطفل عينيه الى السماء فوجد الشمس تتخذ مسارها فيها ، فقال في خفوت :

ـ كان بامكان الشمس أن تغني عن هذه الساعة ·

قال الرجل كمن يتحدث الى نفسه : « لقد قطع عقرباها لحمي وفتتا عظامي وكان صوت رقاصها ينخر اوصالي ، وتكتكتها تهز أعصابي ، كانت جحيما » !

نظر اليه الطفل نظرة فيها مزيج من الرثاء والضيق وقال بلهجة آمرة :

ـ لقد منحتك السعادة ، والآن ···

وبدا كأنما نفد صبره · رفع سيفه باتجاه الجبل واشار به اشارة غامضة· فلم يدرك الرجل معنى حركته · ولكنه بعد لحظات قصار بدأ يسمع صوت سنابك خيول تقرع تراب الدروب ، وبعد قليل رأى في أحد مسالك الجبل خيولا

أربعة ، تجر عربة غريبة الشكل ، ولم تلبث العربة أن اتجهت نحو المنزل الذي فيه يقيم • وحين وصلت العربة الى باب المنزل توقفت الخيول اذ رأت الطفل • تملكته دهشة عارمة من هذه العربة الفارغة التي تنطلق من تلقاء نفسها • وأثار منظر الخيول المتشحة بالسواد أله فحاول أن يهرب ولكنه وجد قدميه تخونانه • قال للطفل بصوت متهدج :

ـ دعني أراهم للمرة الاخيرة وأصغي الى صوت الطبيعة وأشم الشذا والعبير ولو مرة واحدة •

حرك الطفل الصغير رأسه في هدوء ، ثم قال في قسوة :

ـ لا !

وشعر الرجل أنه لن يستطيع ذلك ولو سمح له الطفل به • فقد غشيت عيناه سحابة داكنة ، وثقل منه السمع ، ولم يعد قادرا أن يشم أي أريج • فهمد جسمه في مكانه •

رفع الطفل الرجل وحمله بذراعيه الصغيرتين ثم القاه في أرض العربة وأشار اليها بسيفه الناري • فراحت الخيول تخب منطلقة بأقصى سرعتها ، بينما يترنح الجسد ذات اليمين وذات اليسار ، ويصطدم ، كلما انحرفت العربة ، بأحد أعمدتها الخشبية فيسمع للارتطام أنين طويل •

حكايــة الظمأ القديم

كنتَ تسير معه ، الى جانبه ، تكاد تمسك بيده ، وكان يبدو لك غافـلا ، شاردا ، لا تعرف فيم يفكر • وتنظر اليه فترى قامته السامقة ومنكبيه العريضين، ويديه الكبيرتين الخشنتين ، وتظهر بجانبه صغيرا نحيلا ، تسيران صامتين ، تقطعان المسافات ، يشدك اليه سلك خفي ، هو مزيج من الحنان والرهبــة والثقة • تسلكان هذا الدرب نفسه كل يوم ، كل صباح ، وتعودان منه اذا كان المساء ، لا تنحرفان عنه قط ، تخرجان من المنزل في ساعة مبكرة ، وفي يمينك صرة الغداء ، والدرب طويل تقطعانه سيرا على الاقدام في صمت • تمران بأحياء عديدة يتصل كل منها بالآخر ، بعضها مستوف وبعضها معتم ، وتجتازان أزقة ملتوية ، صاعدة حينا ، منخفضة حينا أخر ، مبلطة بحجارة مكسورة متخلعة ، الى أن

تنتهيا الى سلسلة من الاسواق ، يتمخض الواحد منها عن الآخر · لتعودا في مساء اليوم · في مساء كل يوم وتسلكا الدرب نفسه عودا الى المنزل · هذا دأبكما منذ انتهى العام الدراسي وبدأت العطلة الصيفية ، العطلة الطويلة التي لا تنتهي ·

في ذلك اليوم البعيد القريب ، اشتد الحر منذ الصباح الباكر ، مع ساعات الفجر الاولى ، على خلاف عادته · كنتما تقطعان الدرب نفسه ، فتشعران بوطأة الحر فوقكما ، وكانت الارض تلتهب تحت أقدامكما،وقبل أن تبلغا منتصف الطريق كنتما تتصببان عرقا ، وأخذت خطواتكما تتباطأ عن غير قصد ، وفي زاوية ما من زوايا أحد المنعطفات اختلست النظر ولم تلبث أن توقفت مشدوها مسمرا في مكانك : أناس من شتى الاعمار ، رجال طاعنون في السن وصبية صغار ، فتيات يرتدين الثياب الطويلة ، ونساء يلتحفن بالملاءات وأخريات سافرات ، يحمل كل من هؤلاء سطلا أو جرة او خابية ، يتزاحمون بالمناكب ويعلو منهم الصياح · يتراشقون بالسباب وتصطدم آنيتهم بعضها ببعض ، وقفوا جميعا ملتفين متحلقين حول العين . وثمة فتاة صغيرة تحرك مقبض العين ليسيل الماء عنيدا شحيحا متقطعا ·

ـ هيا بنا ·

قال لك بصوته الآمر الهادىء · كان يخشى أن يصل الى عمله متأخرا · ثم أضاف بصوت جاف :

ـ ستنقطع المياه في هذا اليوم الملتهب ·

قلتَ له في دهشة :

ـ لن يتاح لكل هؤلاء أن يملؤوا جرارهم ··

كنتما قد وصلتما الى المصنع الذي يصطحبك اليه كل يوم · قال :

ــ جفت معظم الآبار ، أما الذين لن يتاح لهم أن يملؤوا جرارهم قبل أن ينقطع الماء ···

ثم لاذ بالصمت فلم ينه كلامه · وأدركت أنت أن أولئك سيظلون بلا ماء · وشعرت بالجفاف يجتاز حلقك وأنفك ويتغلغل في عروقك ·

البئر عميقة وأنت تسعى لتستقي منها · في كل من طرفي الحبل سطل صدىء · تشد الحبل فيشرع الفارغ بالنزول ليصعد الملآن · البئر عميقة الغور وأنت لا تفتأ تشد الحبل بالذراع اليمنى أولا ثم بالذراع اليسرى على التوالي في عملية لا تنتهي · ويظل هذا دأبك زمنالاتستطيع تحديده ، كأنما البئر متصلة بأغوار البحار ، وتشعر أن قواك على وشك أن تخونك ، يكاد الحبل يفلت من يديك ، فتمسك به بقوة وعنف وخوف · انه ان أفلت فسيعود السطل الفارغ أدراجه الى الاعلى · أنت عطشان فهل جفت البئر أيضا ؟ وتصرخ لاهثا في فراشك المطروح على أرض الدار :

ــ أنا عطشان ·

تستيقظ أمك مع انطلاقة الكلمة الاولى ، قبل انطلاق الكلمة الاولى ، كأنها لم تكن غافية ، فتلمس جبينك الملتهب ، وتسارع لتقديم الماء اليك · وتهمس ، من بعد ، في أذن أبيك الذي كان يتململ في فراشه ويسأل وهو بين النائم والمستيقظ :

ــ ما بـه ؟

ــ انه يهذي ، ويبدو أن حرارته قد ارتفعت ·

صورة المتخاصمين والمتخاصمات أمام العين لا تبرحك ، تتضخم في خيالك ،

أنت بين المتدافعين ، الايدي تطول وتمتد فوقك ، تعلو القامات وتسمق ، وتتعثر أنت بين الاقدام . تعثر بك الاقدام وتعود فتصيح :

ـ أنا عطشان ·

تبلل أمك قطعة من القماش بالماء وتضعها على جبينك . وتمسح قطرات العرق المتصبب بغزارة ملء وسادتك ومنامتك وقميصك ·

طويلة أيام الصيف ورتيبة ، حرارتك تعلو وتنخفض وكذلك حـرارة الجو من حولك · في الدرب الطويل نفسه ، تقتحم ذات يوم صمته ، وأنتما تسيرا نفي الصباح ، تخرجه من صمته :

ـ هل نحن من هذه البلاد ؟

ويجيبك على الفور :

ـ أجداد أجدادنا ولدوا وعاشوا وماتوا فيها ·

ـ وقبل ذلك ؟

فيطرق صامتا وهو يتمتم :

ـ وقبل ذلك ؟

ـ أقصد : من أين جاؤوا ؟

يربكه السؤال · لا · لم يطرح عليه مثله من قبل · يتمالك نفسه ، يحاول أن يسيطر على الموقف ، لا يريد أن تفحمه ، أنت الفتى الصغير · يعود الى ذاكرته ، يستنجد بها · في ذاكرته يتجمع الحاضر والماضي ما كان منه قريبـا أو بعيدا · يغوص في أعماق الذاكرة يستنطقها في جهد مضن شاق · تلتزم ، أثناء ذلك ، الصمت كأنما أتيت عملا شائنا · وبعد حين تنفرج أساريره ، انك تحبه اذ يبتسم ، يسارع الى القول :

ـ هل تعنى بالتاريخ ... انني أحب الذين يحبون التاريخ .

ويضيف :

ـ الذي أعرفه أن الاسلاف القدامى لم يكونوا يسكنون هذه البلاد .

ـ من أين جاؤوا اذن ؟

ويقول لك كأنما يودعك سرا ، أعز سر وأثمنه :

ـ من الجنوب جاؤوا ، من حوران ، كانوا يقيمون هناك ثم ارتحلوا الى الشمال . كان ذلك منذ قرون بعيدة ، موغلة في البعد .

الشمس ساطعة ، ضوؤها قاس حاد يتكسر على التربة المتشققة المتألمة من غير أنين . مضت من النهار ساعات عدة . وأزف الظهر وكرت وراءه الساعات . والشمس ما تزال ترسل أشعتها حارة حامية كأنها لا تريد أن تجنح الى المغيب . تتحول الارض الحمراء الى قطعة من الجمر الملتهب مفروشة ببساط من الجحيم لا يستطيع أي كائن حي أن يطأها . جفت أعماق الآبار وتشققت جدرانها وبانت في عريها المخيف . القوم منطرحون أرضا بلا حراك وأنت ممد بينهم . ألسنتكم اليابسة وحدها تتحرك في أفواهكم بلا لعاب . وجوهكم السمر علتها مسحة من الصفرة ، يتلصص الموت عليكم ، يتسلل من بين شقوق الارض . كان غافيا فاستيقظ يتربص بكم . القشعريرة تسري في أبدانكم . ترونه بأعينكم المفتحة حاملا منجلا ذهبيا ، فتصرخون :

ـ لا قمح ، لم ينبت القمح هذا العام ، ولن ينبت في الموسم الآتي ، فما انت والحصاد ؟

يجيبكم بضحكته الرقيقة :

ـ القمح ليس حصادي ، حصادي أرواحكم ·

تزداد القشعريرة في أبدانكم وتجحظ منكم العيون · ينادي مناديكم في أول الغسق :

ـ آن أوان الرحيل ·

وتنهضون جميعا ، كأنما من الاجداث تبعثون · تدرعون الليل ، تقطعون المسافات على وهن ، بقية الرمق فيكم هي التي تسير · القافلة كبيرة وأنت فيها فتى صغير تسير بجانب أبيك واخوتك ، لا يستر عريك لا قطعة من قماش ، وتلمح على مبعدة منك سيدكم ، رئيس العشيرة ، سيد القوم والقافلة ، يتحامل على نفسه في شجاعة وبأس · يشير اليكم في صمت أن حثوا الخطا قبل أن تشرق الشمس · في الطريق ، ضوء القمر يهديكم الى بعض الآبار الشحيحة ، يخرجها من العتمة · فتنيخون الجمال بمن عليها وتستريحون،ثم تبلون وجوهكم وترشفون قطرات من المياه المالحة ·

ـ الى أين نمضي ؟

يجيبك أبوك بتؤدة وخفوت :

ـ الى الشمال ·

ـ وهل نجد هناك الماء ؟

لا يعرف بمَ يجيبك · ما دام سيد العشيرة قد انطلق فلا بد أن تنطلقوا إثره ·· سهول واسعة تملؤها الاشجار · وأراض خصبة لا حدود لها تزرع قمحا · تعطي الحبة سبع سنابل ، وهناك ستملأ المياه العالم · مياه في كل مكان · تنبجس من الارض ، تسيل في الاودية، تنحدر من قمم الجبال ، تفيض من الانهار، تتدفق من الينابيع ، تهطل من السماء ، تتساقط ندى عن أوراق الاشجار ، تسح

فوق الاعشاب ، تتساقط من الغيوم والسحب فلا ظمأ في الصيف ، ولا ظمأ في الشتاء ، ولن تلتوي سنابل القمح على نفسها فارغة باتسة محروقة عطشى ..

كم يوما سرت مع القافلة ؟ يومين . أسبوعا أم أسبوعين حتى أفضى بكم التطواف في ذاك الخط المستقيم الى هنا ؟ أرأيت ! ما كذبكم سيدكم . فالمـــاء هنا غزير ، وسترتوون أنتم والبهائم وسنابل القمح وعيدان الشعير .

حين قرع الجرس ساد الصمت ، وبعد هنيهة دخل سيد العشيرة ، كانوا جالسين وكنت جالسا بينهم على مقعد متآكل حفر عليه الطلاب السابقون أسماءهم ، فهببتم واقفين واشار اليكم بالجلوس . سيد العشيرة معلمكم ؛ لقد صار معلما لكم في هذا الصف المتواضع ، يتطلع الى وجوهكم الصغيرة اللامعة في حنو ، انه ما يزال يحتفظ بقامته المديدة وصوته الهادىء . ولكنه اليوم أكثر شبابا وأناقة من ذي قبل . لم تخطئه عيناك حين رأيته أول مرة في مطلع العام ، انه هو بنفسه ولا يمكن أن يكون شخصا آخر ، انك لتحبه ، وتحب الاصغاء الى درسه ، تراه كبيرا كبيرا تثق بما يقول ، تصدق ما يقول . وتقدر أنه يعرف الحياة بأفضل من سائر المدرسين ما دام يعلمكم التاريخ . لقد لمحك أوائل هذا العام ، وهو يقطع المسافة ببطء ، بين باب الصف والمنبر ، لم يكن قد تعرف أسماءكم وأشخاصكم بعد . كان امامك كتاب وكنت منهمكا في قراءته حين دخل . لم ترفع عينيك عن الكتاب . استرعيت انتباهه ، سألك هامسا قبل أن يبدأ الدرس وأنت جالس أمام المنبر في المقعد الامامي :

ـ هل تقرأ كتابا في التاريخ ؟

باغتك السؤال . احتججت كمن يتنصل من خطأ :

ـ لا .

ـ اذا فما هذا الكتاب ؟

وسارعت الى الاجابة بثقة وقوة :

ـ انه كتاب أدب ·

ويبتسم في حنان ، ويهز رأسه ايذانا بالموافقة والرضى :

ـ سيان ·

لم تفهم يومها معنى كلامه · لم تدرك ماذا يقصد بكلمة سيان · كيف يكون الادب والتاريخ سيين ؟ وكان عليك أن تنفق سنوات من حياتك ، سنوات طويلة لتفهم ذلك وتتعلمه ·

يومذاك ، أراد أن يمهد للدرس بمدخل صغير فراح يتحدث عن التاريخ · انك لتذكر كيف أشاد به · وقال بعض الطلاب فيما يشبه الهمس : « كل مدرس يحاول أن يظهر قيمة المادة التي يدرسها ويعلي من شأنها ، لقد ألفنا ذلك » · لم تبال بما كانوا يقولون · أصغيت اليه كما لم تصغ الى أي مدرس آخر · والتقطت كلماته ، واحتفظت بها في نفسك حريصا عليها ، ضنينا بها · انك لتذكر أنه قال فيما قال :

ـ ··· لقد اهتم أجدادنا العرب بالتاريخ اهتماما كبيرا ، وبذلوا نحوه عناية خاصة ·

وراح يعدد هؤلاء المؤرخين وأعمالهم ، وكنت تتابعه بخيالك وهو ينتقل من مؤرخ الى آخر · وترى هؤلاء ، وما أكثرهم ، وهم منكبون على الكتابة سحابة النهار وقسما من الليل ، ينتزعك من تخيلاتك صوته وهو يردد :

ـ ··· ولست أعرف شعبا من شعوب الارض ترك المصنفات التاريخية ما تركه العرب ···

ترفع اصبعك ، ويصطبغ خداك بالحمرة :

ـ علام يدل ذلك • ولماذا ؟

تبدو اجابته مقتضبة غير مقنعة • أيكون يجهل الجواب ؟ محال • هل أشفق عليك أن يفاجئك بالحقيقة ؟ وامتدت منذئذ تساؤلاتك •

معلمكم ، هذا اليوم ، شديد الكآبة • انه ليتحدث عن القبائل القديمة التي برح بها الجفاف وأضناها الظمأ فيممت وجهها نحو الشمال تلتمس أرضا خصبة ومياها غزيرة • وها هي تصعد نحو الشمال ، نحو الحنان التي تحدث عنها رائدكم • صوته الكئيب يشي بالالم • بألمك أنت حين كنت تغذ السير دامي القدمين في قافلة كبيرة ويهتف هاتف منكم :

ـ الى أين ؟ الى أين ؟

فيجيبه الرائد في ثقة واعتزاز :

ـ الى الشمال • الى الشمال •

يخرج سيد القبيلة عن صمته ليقول :

ـ وهناك سنقيم ملكا ، وسنوزع القمح في أرجاء الارض ، ولن يشعر أحد بالجوع من بعد •

الجوع ؟ ليس الجوع هو الذي أخرجكم من مضاربكم في ذلك القيظ ، بل الظمأ ، كنتم ظماء • ورايت بأم عينك الرجال والنساء والاطفال يتساقطون كجزوع النخيل • كان الظمأ أقسى من الرياح العاتية والعواصف الرملية التي تلتهم ما يعترض سبيلها •

وفي غمضة عين وجدتم أنفسكم محاصرين • هذا ما قاله معلمكم • ولكن معلمكم

هو المقصود بالحصار · ويغيب عنك وجهه وسط العجاج · والعجاج يزحف من بعيد كجراد منتشر في الجو · وانت المحارب محاصر · ليس أمامك أعداء فتحاربهم · لقد قطعوا عنكم الماء · فبرز العدو ، عدوكم ، من داخلكم ، من داخل أجسادكم ، يأخذ عليكم أنفاسكم ويتمدد في شرايينكم · تشعرون به بفتت مسام جسمكم ، وتعجزون عن مجابهته والامساك به · والماء بعيد بعيد ، يبدو لك كأنه على الطرف الآخر من العالم ، وراء العالم ، فتلوي عنقك وتنادي وقد غدوت عاجزا عجزا مطلقا عن كل مقاومة :

ـ أنا عطشان ·

ثم تغفو · تمتد غفوتك دهورا ولا تلبث أن تستيقظ كمن يستيقظ من حلم ، لتجد نفسك أمامه في قمة الجبل · كان معلقا على شجرة من أشجار الزيتون · الدماء تنبجس من مواقع رؤوس الشوك في رأسه · ويداه مطبقتان على مسمارين من عنف الالم يكاد يجذبهما من مواقعهما · كان يلتوي أمامك · يرمح برأسه ذات اليمين وذات اليسار · لا،لم يكن يشكو من الالم · لقد صرخ، وسمعت أنت صوته ، رغم المسافة البعيدة التي تفصلك عنه · مسافة لا يمكن تخيلها · كان ينادي :

ـ أنا عطشان ·

ورأيت واحدا من الجنود يسارع فيبلل قطعة من قماش ويقربها من فمه · ولم يشأ أن يشرب · لم يقدموا له الماء بل السراب · ثم رأيتهم يطعنونه فتفيض روحه من جنبه · وآنذاك تفجرت الينابيع وسحت المياه · الا انها لم تستطع أن تطفىء ظمأه · وكان يرن في مسمعك وانت عائد الى بيتك الصوت الظامىء ينادي :

ـ أنا عطشان ·

وأنت أيضا عطشان في موسم الجفاف هذا ·

تنضم الى حلقة الراقصين في الحلبة · لم يكن هذا رقصا بل دعاء و مناجاة وصلاة · كنتَ تصلي مع المصلين وأنت غافل عما يجري حولك · لقد تحلقتم خاشعين حول معلمكم تبتهلون · كيف اجتمع هذا الخلق كلهم في ظاهرة البلدة يصرخون · يجأرون بالصراخ :

ـ اسق العطاش تكرما ·

ويردد جمعكم في خشوع وضراعة :

ـ فالعقل طاش من الظما ·

ترقصون وترقصون حتى منبلج الصباح · تعلو هاماتكم وتنخفض وتستدير أجسامكم خفيفة رشيقة مع الايقاع الرتيب الحزين · ثم تلهثون منتشين دائرين حول أنفسكم وقد قام معلمكم في وسط حلقتكم · وأنتم حوله كالكواكب حول الشمس · وتظلون ترقصون الى أن تتلاشى خطواتكم في الظلمة كأنها آثار أقدام في رمال الصحراء · وتعم العتمة العالم ·

حين نهضت تدعوها للرقص كانت العتمة تعم أرجاء المكان · وقبل أن تبلغ مجلسها كانت قد أطفأت لفافتها وانتصبت في مكانها · كيف قدرت أنك ستتجه نحوها ؟·· وتجذبها الى صدرك بحرارة ، وتشدها اليك فلا تقاوم · بحنان تسلم رأسها الصغير الى صدرك · تصغي الى خفقان قلبك · والناس حولك يرقصون أزواجا أزواجا لكنك لا تراهم · لقد انحسروا الى منطقة الظل من العالم فليس لهم وجود · لا وجود الا لهذا الظمأ يدفعك اليها من قبل أن تولد · وتتأمل شفتيها · شفتيها الطافحتين حياة وحرارة · وتحني هامتك لتلامس شعرها فيعبق الشذا والاريج · بهذه البراءة التي تحتضنها بين ذراعيك

تشعر أنك قادر على ان تجابه العالم ، كل العالم بالامه وأحزانه، بجوعه وظمئه، وان تجابه الموت • يهمس المعلم في أذنك : « الموت هو الظمأ الى الحب • الموت أن يتوقف القلب عن المحبة » • وقلبك ينبض في عنف وقوة لا مثيل لهما • وتصغي • ها أنت تصغي الى نبضات قلبها • أهو قلبها أم قلبك ؟ لقد امتزجت النبضات بعضها ببعض . وما من احد يستطيع أن يميز بينها • وترتمي يدك على عنقها • العنق العاجي الذي ينير الظلام الدامس • وها أنت تحدق في عينيها الصافيتين • وفي عينيها يتجمع الماضي والمستقبل • ماضيك ومستقبلك ، ما كنت وما ستكون • وترى فيها القافلة تلو القافلة تغذ السير بحثا عن الري• يذوب الظمأ مع الالحان . يتلاشى كالالحان فلا يبقى منه الا صدى طفيف في أعماق النفس •

في آخر لحظة من لحظات وجودك • تهتف تقول في صوت ضارع :

ــ اسق العطاش تكرما •

انفعالات

ذلك هو المنعطف الذي أريد الوصول اليه · اني لأراه الآن في وضوح ، فلم يعد يفصلني عنه الا خطوات قليلة سأجتازها ثم أبلغه في دقائق قليلة · لقد انطلقت حين أزف موعد اللقاء ومضيت أحث الخطا · الفرحة الغامرة تقود خطاي · أنظر الى الدرب فأراه طويلا طويلا تملؤه التعاريج والفجوات · ومع ذلك فأنا واثق أنه سيقودني الى المنعطف حيث تتجمع الدروب لتفضي الى الغابة· كل الدروب ههنا ، في هذا المصيف الجميل ، تفضي الى الغابة ، تنتهي اليها ، وتضع نهائيا بين أشجارها الأبدة الكثيفة الملتفة التي ما امتدت اليها يد انسان منذ عصور · ما من أحد أراه في الطريق · لقد أوى الناس جميعا الى منازلهم في ساعة العصر هذه ، وأغلقوا على أنفسهم الابواب والنوافذ اتقاء

لشمس قريبة لاهبة رغم برودة المصيف الذي تلفعه الرياح العاتية من جهاته الاربع · لا . لم ألتق انسانا طوال هذا الدرب ، كأنما الارض خالية خاوية · أو من يدري فلعلني صادفت أناسا كثيرين الا أنني لم أتبين أحدا منهم · كنت شارد الذهن أتطلع في فرح طفولي الى المدى البعيد ، فمن تلك الجهة ، من أعلى المنحدر حيث تقيم سوف تنزل الآن لنلتقي عند المنعطف ونمضي من ثم الى الغابة . الغابة الهادئة التي تمتد الى ما لا نهاية ، فتلتصق بالسماء في الافق البعيد ·

قلت في نفسي : « أتراها تعدل عن المجيء لسبب ما ؟ » الا أنني سرعان ما طردت هذا الخاطر ، وتألمت لمجرد وروده الى ذهني · وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أدفعه عني · ولكنه كان يعود ملحا · « ومع ذلك فهبها لم تأت ؟ » لا ، لا شك في أنها آتية ، لقد همست في أذني وأنا جالس أمامها هناك ، قالت : سنلتقي غدا عند ذاك المنعطف · وأشارت باصبعها · لم أنظر الى حيث كانت تشير بل تعلق نظري بأناملها · ونقلت طرفي من أصابعها المرهفة الى عينيها · ورأيت أمامي بحيرتين صافيتين عذبتي المياه ·

قلت لنفسي : كيف تلقي بنفسك في بحيرة عميقة الغور وأنت لا تعرف السباحة ؟! والحق أنني أجهل السباحة جهلا تاما ، ومع ذلك فقد كان في تينك البحيرتين نداء آمر يستحوذ على الانسان فلا يملك الا أن يستجيب له ·

قالت لي :

ـ اذا كنت تحبني حقا فدع كل شيء واتبعني ·

وكان عليّ في الليلة نفسها أن آخذ الفأس وأهوى بها على الحبال التي تشد خيمتي الى الارض ، وأن أقتلع الجذور وأحطمها ، ولقد قمت بذلك في

ستنهي الهدوء والاناة ورباطة الجأش . وسرعان ما تحول الماضي الى هشيم اشعلت فيه عود ثقاب ثم مضيت وابتعدت عنه ·

يوم توطدت أواصر صلتي بها كانت وحيدة ، ووحدتها قاسية مرة - لقد قصدت هذا المصيف تستجم وتستشفي · ووجدت غربتي القديمة صدى لها في كيان هذه الفتاة المرهفة الحس الرقيقة الشعور الوديعة الثائرة في ان معا ، واصغيت اليها كما لم أصغ الى أي مخلوق من قبل ، وبدا لي أنني أعرفها منذ دهور ، وانها كانت تعرفني كذلك · وحين كنا نلتقي في دروب هذا المصيف كان الزمان يطوي تحت أقدامنا · كانت لقاءاتنا طمأنينة وسلامـــا وراحـــة وأمنا · ومنذ أيام أسندت رأسها الى كتفي وراحت خصلات شعرها تمس كتفي وذراعي مسا رقيقا رقيقا كلما تحركت فاحسست انئذ أنها قطعة من نفسي · وفي هنيهات طويلة كان يسود بيننا صمت طويل هو أعذب من كل حديث وأعمق من كل قول · لقد أحسست ، وربما لأول مرة في حياتي ، بأنني سعيد ، سعادة لست أستطيع ان أعبر عنها أو أصفها ·

ها أنذا أحث الخطا ، فني نيتنا اليوم أن نكتشف هذه الغابة ، وأن نتمتع بجمال الطبيعة الوحشي فيها ، لقد طفنا أرجاء المصيف معا ، ولنا في كل بقعة منه ذكرى ، ولنا في كل منعطف من منعطفاته خلجة وهمسة · كم بدا لي العالم جميلا ، وكم يبدو لي الآن رائعا فاتنا أتعشقه بكل جوارحي وأتعلق به تعلقا عنيفا كما تتعلق بعض الثمرات بنواها · أما فتاتي هذه فقلب هذا العالم ، قلب يخفق ويضطرم حبا ·

انني المحها الآن آتية من بعيد ، في مشيتها المطمئنة ، وأسمع صدى وقع أقدامها خفيفا هادئا ينتشر في المدى وتردده الجبال العالية · أتطلع بناظري الى حيث تسير فأرى سحابا ابيض يملأ السماء كأنما يسير خلفها ، يحتضنهـا ويدفعها برفق ·

في هذه اللحظة عينها يتناهى الى سمعي صوت بوق سيارة · انه كالنعيق المنكر المفزع يقطع صمت هذا المكان الهادىء وسكونه المقدس ، واتلفت أبحث عن مصدر هذا الصوت وأطوف ببصري في أرجاء المكان · لا ، ليس هناك أي اثر لسيارة · لقد اقتربت من الغابة ، واني لأعجب أن تصل أية سيارة الى هذه الغابة الكثيفة الغارقة في وحشيتها الابدية ·

بعد لحظات قصار عاد صوت بوق السيارة بأقصى وأعنف من ذي قبل ، فأثار في نفسي الضيق · أحس أن هذا الصوت يخترق أذني بقسوة وايلام · الا أنني لم ألمح رغم طول تلفتي في المكان أية سيارة · والحق أن هذا الصوت قد صرفني هنيهة عن تتبع الفتاة التي كانت تنحدر من بعيد فتظهرها الدروب لي مرة ، وتخفيها مرة أخرى · وشرد بصري في هذه الدروب أحدق فيها عسى أن أتبين مسالكها الضيقة · صوت المكبح ينتشلني من شرودي ، فالتفت الى الوراء ، أرى سيارة صغيرة تقف خلفي تماما ، وأسارع لأفسح لها الطريق ، والطريق واسع فخيم وقوفها خلفي ؟·

فجأة تتكاثف الغيوم في السماء ويتحول السحاب الابيض الزهو الى قطع سود تغطي صفحة السماء ، وتزحف العتمة فتملأ أرجاء المصيف · كنت ما أزال أتطلع الى الفتاة تغذ السير فأرى قامتها العالية ووجهها الذي يطفح بالضياء ·

والتفت فأرى السيارة واقفة في مكانها لا تتحرك · فأهز كتفي في لامبالاة · فحين تصل الفتاة سأتأبط ذراعها ونمضي معا نلجأعماق الغابة كأنناكائن واحد· ولكن هاهي ذي سيارة ثانية تنحدر نحوي · لا أدري من أين جاءت ولا الى أين تتجه ، وأرى نفسي ، وانا ما ازال أتطلع الى الفتاة من بعيد ، واقفا بين سيارتين واحدة أمامي وواحدة خلفي ، فأسارع محاولا الابتعاد عنهما · عند ذاك برزت السيارات ، سيارات آخرى كثيرة لا يحصيها عد من حجوم مختلفة

والوان متباينة ، فاندفعت باتجاهي وأحاطت بي من كل الجهات وها هي تقترب مني رويدا رويدا ، لكم اود أن اقفز فوقها أحاول النجاة ، الا أنها تبدو لي ملتصقا بعضها ببعض فليس بينها أي فراغ ·

واتطلع في واجهات السيارات في عصبية وخوف وارتعاد ، ان سائقا ملثما بلثام أسود يقود كلا من هذه السيارات · وتنطلق من حنجرتي صرخة مدوية ، صرخة لا تشبه الصراخ الانساني ، انها اشبه شيء بصرخة حيوان مطارد جريح، واندفع بكل قوتي ، فلا ادري الى أين أمضي ولا كيف السبيل الى الخلاص ، الا أنني في كل خطوة اخطوها ، ولو صغيرة ، أصطدم بصفائح معدنية صلبة قاسية حادة ملساء ·

وارى الفتاة وهي توشك أن تصل أخيرا الى أول المنعطف ، فتتحرك يداي تطلبان الغوث والانقاذ ، انني ادافع عن سعادة أحلم بها وحب يعطي حياتي معنى · الفراغ الكبير والهدوء الصلب يمنعان وصول اي غوث ، وأصرخ ، من أعماقي أستغيث ·

ـ ابتعدوا عني ! أريد الخروج !

ولكن الصرخة تتبدد بسرعة ويسر في الهواء كأنها لم تنطلق أصلا · ويزداد الجو قتاما ويخيم الصمت والظلام على ما حولي · اكرر الصراخ وأنا أتابع بعينين غائمتين خطا الفتاة وهي على وشك الوصول الى المنعطف · الثانية دهر والابدية تفغر فمها · لسوف تعجب من تأخري ، ولعلها تتألم لذلك · لقد عاهدتها على أن أجنبها كل الم · وها أنا أسعى لأحرك ذراعي كي أؤشر لها · ولكن قواي تخونني ، فأنطرح على الارض · هناك تزكم أنفي رائحة البنزين ؛ فأحاول النهوض · وأجد نفسي عاجزا عن الحركة ·

تلتمع شرارة صغيرة ، صغيرة جدا لا تكاد تبين · ولا تلبث أن تتسع وتمتد

فيما حولي • وأرى النار تندلع من حولي ، نارا حمراء ذات ألسنة صفر ، تتراقص في كل اتجاه ، يعلو لهبها ثم ينخفض ، ليندفع من بعد عاليا شديدا متاججا • وتحيط بي النار من كل جانب ، تهتز وتتماوج وتندفع في حركة عجيبة ، كانما تؤدي طقسا من الطقوس السحرية • أصرخ :

ـ انني محاصر ، محاصر !

وتنطلق الابواق في دوي هائل من كل الاتجاهات تمزق الصفاء ، تشوهه ، وتطغى على صوتي •

في آخر لحظة من لحظات الوعي أرفع رأسي في جهد كبير • أرى الفتـاة راقفة هناك ، مطرقة رأسها ترتجف ، يفصل بيننا بحر من النار • وكان آخر ما رايته دموعا تبلل صفحة وجهها الناصع ، برقعا من الدموع كثيفا ، مختلطا بأناتها • وأسبل جفني •

بحار الشوق

وقال لي بصوته الرعدي : سألقيك في خضم اليم ، ثم قال لي : و سوف تبتلع اللجة وتبتلعك اللجة ، حتـى تصير بين اللجج كالطحين تحت الرحى ، وستلاقي أياما عصيبة ، فاسع الى النجاة ، وحاول الوصول ان استطعت ، ولن تستطيع • وقال : أوصيك بالصبر والالم • وحين فتحت عيني كان قد اختفى ولم يلبث أن عاودني النوم •

قلت في نفسي : ما دمت قد استيقظت ، فلأبطل عمل منبه الساعة ، فما داع لأن يرن بعد الآن ويوقظ من في البيت •

والحقيقة أن نومي الليلة كان مضطربا ، متقطعا ، فقد كان علي أن أنهض

في ساعة مبكرة وارتدي ثيابي ، وأهييء نفسي بسرعة لأقوم مع عدد من زملائي برحلة الى متنزه بعيد عن بلدتنا ، وكنت على ما يشبه اليقين أن هذه الرحلة ستحمل الى نفسي كثيرا من السرور والمتعة ، والتحرر من عناء كان يجثم على صدري منذ شهور بعيدة ·

الفجر على شفا الليل ، من أعماقه ينبجس ، ونحن في سيارة كبيرة تطوي بنا السهول طيا على عجل ، سهلا اثر سهل ، ومنطقة بعد منطقة ، والطريق مستقيم كالصراط ، لا ينحرف يمينا ولا يسارا ، لمَ اختاروا هذا المكان النائي مراحا لهم ؟

قالوا : مدينتنا تحيط بها الصحارى فلنبتعد عنها ، ليس فيما حولها متنزه أو ينبوع أو جدول أو بستان ، فلننأ عنها ، ولتكن هذه المغامرة · ثم نصل بعدها الى اللاصحراء حيث الاشجار السامقة الكثيفة تشكل دغلا جميلا ، حيث الماء يجري ليل نهار ، الماء الصافي البارد العذب يسيل في سواق عريضة تحتضنه، وعلى ضفاف السواقي صنوف النباتات والازهار ·

لم أعد أذكر متى بدأ ذلك ، ولا في أية ساعة من ساعات النهار كنا · ربما بدأ إبان الضحى ، أو لعله كان في الظهيرة · أنّى لي أحدده وقد اختلطت عليّ الامور والتبست ، وتداخل بعضها ببعض · كل ما أذكره أن الشمس كانت محتجبة لم يعد لها أثر · أكانت الاشجار تحجبها ؟ لا بل الغيوم المالئة صفحة السماء · ولكن من اين هبطت هذه الغيوم ونحن على مشارف الصيف ؟

قالوا : ليس في الامر كبير خطر ، ان هي الا زخات خفيفة من المطر ، سرعان ما تتوقف وينجلي وجه السماء ·

والحق أن مطرا خفيفا رهوا بدأ يتساقط · كان كالندى أو أضعف ، أثار

في أجسادنا رعشة لطيفة عذبة ، الا أن ما حدث بعد ذلك لم يكن في الحسبان . كان فوق تصورنا ٠

فجأة ، وأمام دهشتنا الكبرى . امتلأت السماء بغيوم سود آتية من مكان مجهول ، تدفعها رياح عاتية ، وما كدنا نرفع أعيننا نستجلي هذه الظاهرة التي حجبت الضياء ، والرؤية نفسها ، حتى انهمرت الامطار في كل اتجاه ٠ و خلافا لكل توقعاتنا فقد ازدادت الامطار ، لقد حسبنا أنها لن تدوم أكثر من دقائق فاذا هي تمتد زمنا طويلا خلناه دهرا ٠٠٠ كانت الارض الجافة اليابسة تتشرب قطرات المطر الكروية ، وكان النهر والسواقي تبتلع تلك القطرات وتقذف من أعماقها رذاذا يتطاير هنا وهناك ، ولم تلبث الارض أن اكتفت بما شربت ، ولم يلبث النهر ، والسواقي من حوله ، أن أبدت عجزها عن تقبل المزيد ٠ اذ ذاك تكوّن فوق سطح الارض بساط من الماء سرعان ما امتد حتى لامس مياه النهر ، وفي ثوان قليلة تلاحمت المياه هنا وهناك ، وبدأت تغطي أرجل الطاولات والكراسي ٠ وكان المطر يهوي فوقنا كالمطارق ٠

ونادى مناد : احتموا بالاشجار ، ليمسك كل منكم بجذع شجرة وليتمسك بها ٠

وتبددنا في أرجاء الدغل كالسرب ٠ وحاول كل منا أن يتجه الى شجرة في أماكن مرتفعة من المنطقة ، وألصق جسمه بلحائها ٠ وما يزال المطر ينهمر ، مشكلا صفائح من معدن أسود تحجب أحدنا عن الآخر ، وتحول دون رؤيته أو سماع صوته ٠

وجاءني صوته من خلل الرعد ، قال لي : لا يكن سكونك سكون العاجزين !
قلت بصوت عال : لا منجى ! فأنا مائت لا محالة ٠

وقال لي بصوته الرعدي مختلطا بصوت انهمار المطر وتقصف الفروع في الاشجار : ما دمت تعلم أنك مائت . ففكر في الحياة ، واسعَ اليها -

كان الصوت عطوفا على غير عادته · وقد أثار في نفسي عواطف كانت خامدة هامدة · الا أنني شعرت أن التعب والارهاق قد فتتا قوتي ، فأنخت رأسي على لحاء الشجرة كأنما كنت أتوسدها ، وغفوت ·

ثم أضاء البرق بسناه أرجاء المكان فلمحت على ضوء السنا فلكا صغيرة ، مرمية فوق الارض ، قلت أمضي نحوها · خلعت ملابسي وسرت في الارض الموحلة ، كانت قدماي تنغرسان في الطين ، وكان طين الارض يمسك بي في كل خطوة ويتعلق بقدمي فلا أفلت منه الا بعد عناء · وحين أوشكت أن أبلغ الفلك كانت هذه على وشك أن تتحرك · فانطلقت نحوها بأقصى ما أملك من قوة ، ووجدت أن معظم زملائي قد سبقوني اليها ·

ووجدت الفلك تطوي المياه بمن فيها مترنحة سكرى ، ولأيا ما عثرت لي على موطىء قدم فيها · كانت تمج بالخلق وكان الضجيج يعلو ويعلو ، وصرخات الفزع تذوب في أصوات الموج وانهمار المطر وقصف الرعد · كان الجميع يلهثون ويمسكون أنفاسهم خوف السقوط ، وكل متعلق بما تصل اليه يده من أجزاء الفلك · وهبت الريح مرة ثانية · قوية عنيفة ، والمطر ما يزال يتساقط بلا توقف ، واشتد هبوب الريح · وان هي الا هنيهات حتى انقصفت السارية ، ثم تلتها بعض العمد ، ولم تلبث الالواح الكبيرة أن تفتتت ، وهوى الجمع في الماء لا يسأل أحد عن أحد · وراح الموج يدفعني ، ويتلاعب بي ، ويقذفني الى الاعلى ثم يعود فيحتضنني بعنف لا مثيل له · وشعرت بأن الموج يطحن عظامي طحنا ، ويكاد يخلع مفاصلي · كنت كغصن صغير يابس فوقه ·

في شدتي صرخت ، ثم عدت فصرخت مستنجدا :

ـ أنقذني يا هذا . خلصني فأنا على وشك أن أهلك ٠

وقال لي بصوت جاءني من بين قمتي موجتين عاليتين تكـاد ذروتاهمـــا تصطدمان :

واغمي عليّ على أثر ذلك من الاضطراب والخوف ولم أعد أعرف ما حل بي ٠ عند ذاك من غير ريب فتحت عيني . فوجدتني ملقى حطاما في بقعة من الارض صغيرة نائية تحيط بها المياه من كل صوب . الا أن هذه الجزيرة الصغيرة كانت بقعة خضراء بهيجة ينسكب الجمال في أرجائها انسكابا ثرا ٠ ولمحت على نشز من الارض ينبوعا يسيل بهدوء ٠ قلت : أغسل وجهي ويدي ورجلي من الادران التي لحقت بها ، وأبل عطشي بقطرات من الماء العذب عسى تهدأ روحي وتطمئن ٠

ولم أتردد . رغم تعبي ، بالقيام بذلك جميعا ٠ واما انتهيت وجدت أنني عار ، فانتزعت ملاءة من فوق احدى المناضد والتحفت بها ٠ رفعت رأسي الى فوق ، الى منطقة عالية ، فرأيتها ٠ لا ، لا يمكن أن تخطئها عيني بين آلاف الفتيات ٠ ورأيتها تبتسم ، وتضحك ضحكتها العذبة الرقيقة ٠

سرت نحوها على عجل ، وأنا أصرخ فرحا ودهشة :

ـ أنت هنا ؟

ـ لقد كنت أنتظرك ٠

وشعرت بالالم والحسرة ، فمنذ زمن بعيد لم يتح لي أن أرها ٠ وتساءلت كيف كانت تنتظرني ، وأنى لها أن تعلم أني سأكون هناك ٠ ولكنني ، مع ذلك صدقتها ٠ فأنا أصدقها دائما ٠

قلت للتي يحبها قلبي ، وكان وجهها يتلألأ بنور ساطع :

ـ ذا جمالك لم يتبدل ، فأنت كما كنت ، كما عرفتك في الزمن الاول ٠ أما أنا فقد هدمتني الايام ٠

وقالت بصوت شجي :

ـ تقول ذلك لأنك تحبني ٠

وتلفتت حولها تبحث عن معطف فقدرت أني شعرت بالبرد ، ثم وضعته فوق كتفي برفق ٠

قلت لها في ارتباك وضراعة :

ـ حين لا تكونين معي يغدو الكون مظلما والعالم خرابا والسواقي بحارا مدمرة ٠

أجابت وفي كلامها يختلط الدلال بالحكمة :

ـ لا أبتعد عنك الا اذا ابتعدت أنت عني ٠

قلت في تصميم :

ـحبذا لو بقينا هنا أبد الدهر ٠

ولكن مـــا أن نبست بهذه الكلمات حتى امتدت الي قبضتـــه الهائلـة فامسكت بي ، وطوحتني أمدا طويلا في الهواء ثم ألقت بي أرضا ٠ ولم يأبه بمجيئي أحد من زملائي ، كأني ما تغيبت لحظة عنهم ٠ كانوا منهمكين في اعداد الفداء ٠ وقد انتحت جماعة منهم في أحد أركان المتنزه يلعبون ويضجون ، بينما استلقى بعضهم فوق العشب الندي ٠ وكان فريق يستمع الى الاغاني في ركن ما بعيد عن صخب الصاخبين ٠

طغى علي الالم على حين غرة حتى أخذت الدموع تترقرق في عيني ٠

لقد وددت لو بقيت مع التي يحبها قلبي . لو أراها فترة أخرى • وشعرت بانقباض بان على صفحة وجهي فدهش له زملاتي ولكنهم لم يتفوهوا بكلمة •

ناديت : متى أراها ؟•

وجاءني صوته يهدر في قسوة : ألم أوصك بالصبر والالم . فلم تتصامم عن كلماتي • لقد وجدت خلاصك فلا تدعه يفلت من يديك • ولسوف تتألم أكثر • ولسوف تصل المياه . مياه الالم . الى ذروة رأسك . وتدمي الاشواك قدميك • ولكن من يحبها قلبك سوف تكون معك أبد الدهر •

حين صحوت لم أعد أسمع شيئا البتة . ولكن صورة التي يحبها قلبي ما تزال ترافقني •

النور والظلمة

تشرق الشمس وتغيب • تفتح المخازن والمصارف والمحلات والدكاكين أبوابها في الصباح ، ثم تغلق الابواب في المساء •

أدفع باب المصرف برفق ، فينبعث قليل من النور الى الداخل ، ولا يلبث الباب أن ينغلق بآلية فيتقلص النور الى الخارج ويربض عند عتبة الباب •

أخطو بضع خطوات في الزحام ، بين الواقفين ، وأتوقف أمام حاجز هائل يقسم القاعة الكبيرة قسمين غير متساويين من الجدار الايمن حتى الجدار الايسر •

أنظر ههنا وهاهناك فأرى خلقا كثيرا ، اصطدم بهم وأشعر بأنفاسهم تلفحني • من حولي وأمامي وخلفي رجال ونساء وشيوخ وشباب •

الحاجز الخشبي عال يكاد يصل الى كتفي · خلفه مجموعة من الموظفين يجلسون الى مناضدهم ، هذا الحاجز العريض المغطى بالمرمر الاسود يحيلهم الى أناس قابعين في قعر حفرة · من حولهم اضبارات وأوراق من شتى الحجوم والالوان · أمام بعضهم أدراج مفتوحة مملوءة بالاوراق · على مناضد أخرى آلات كاتبة وآلات حاسبة ، تقوم بالعمليات الحسابية بآلية ·

أتطاول وأمد عنقي لأرى أين صارت الحوالة الصغيرة التي قدمتها الى واحد منهم · لكانها اختفت في الظلام · الموظف النحيل يرفع رأسه بين الفينة والفينة يتطلع الى الناس : انه يرمق شرفات بناية ، ثم ينفث الدخان · الدخان يتصاعد ويتجمع ويشكل غيمة تحجب الرؤية · وتعود عينا الموظف بآلية الى الاوراق التي أمامه ·

تبدر من الواقفين حركات يسيرة · يحرك أحدهم يده أو جذعه أو يرفع كتفه أو يستدير · يسير شخص ما ويبتعد · يقترب غيره ويزحم الآخرين · تتحرك جذوعهم في بعض الاحيان لغير ما سبب · عيونهم وحدها تعمل ، ترمق ، تقطب ، تتابع شيئا ما ، تتابع مسيرة الاوراق · هذه الحركات الصامتة كلها تلامس الاسماع ، مختلطا بعضها ببعض ، ولكن لها مع ذلك هديرا يَبْلغ الآذان، صوتا خاصا لا يشبه الاصوات الاخرى ·

فجأة ينبعث من الآلة الحاسبة صوت تكتكة يتلوه صمت · من بعيد ثمة آلة كاتبة لا تتوقف · تكتكة رتيبة مستمرة ذات ايقاع واحد لا يتغير · أما الواقفون فقد ألفوها حتى لم يعودوا يشعرون بها ·

العيون تلتفت على نحو عابر تنظر عابر تنظر الى هذا أو ذاك من الموظفين· ينحسر الموظفون الى منطقة الظلمة أمامي ، فلا أرى الا هذه الفتاة ضاربة الآلة الكاتبة ، كثير من المراجعين لا يوليها كبير اهتمام· أولئك هم المتعجلون المنهمكون

في معاملاتهم · كذلك فالفتاة لا تبالي أحد · انها منصرفة الى عملها على الآلة لا تكاد ترفع رأسها الا لتستريح لحظات · أما أنا فلا أنظر الا اليها ، ولا أرى غيرها · أنظر اليها باستمرار · أتابع حركاتها وتنقلات أصابعها على مضارب الآلة · وجهها مضيء · يبدد ضوءه بعض العتمة المنتشرة حوله · حركات يديها نشيطة سريعة مكتنزة بالحياة والحيوية · أحب أن أنظر دائما الى يديها البضتين الصغيرتين · أصابعها رشيقة وهي تحرك دولاب الآلة وتبرمه ·

حين أدخل المصرف ، ويحدث ذلك مرة او مرتين في الاسبوع تقع عيني على مجموعة الموظفين المتشابهين القابعين وراء أدراجهم ، فلا أكاد أميز واحدا من آخر · ثم ينحسرون جميعا الى منطقة مظلمة · وتبرز هذه الفتاة الشقراء أمام عيني ، بوجهها القمري المستدير محاطة بهالة من الضياء ، وما أسرع ما يتحول هذا القسم من المصرف المفصول بالحاجز المرمري الى مربعات ، يحتل كل مربع منه موظف ما · وفي أحد هذه المراجعات مكتب الفتاة · النور ينسكب عليها ، وعلى آلتها وحدهما · فأراها على نحو واضح ، ويختفي الآخرون ·

يزحمني الناس فلا أبالي بهم · ويتململ الواقفون الذين ينتظرون في صبر واذعان أن تنتهي معاملاتهم · وأنا أنظر الى الحوالة المستطيلة البرتقالية اللون وهي تنتقل في بطء في منطقة الظلمة ·

حين تنتهي الورقة الى يديها تلقي عليها نظرة خاطفة ، وتهز رأسها · في بعض الايام أود لو تسرع في انجازها ، ويخطر لي في أيام كثيرة أخرى أن تتباطأ في العمل كي أظل أنظر الى وجهها الجميل وشعرها المسترسل على كتفيها و عينيها الزرقاوين ، بيد أن ايقاع الآلة منتظم ورتيب : وفي مدخل المصرف ساعة جدارية ذات رقاص كبير لا يتوقف عن الحركة ·

في الزحام الشديد ينضغط المراجعون ، والزحام دائما شديد · يتسلل

بعضهم فيقف أمامي ويحجب عني الفتاة · أشعر كأن نورا قد انطفأ ، فأغرق في الظلمة · ثم يمضون من أمامي ويعود النور : لقد حجبوا بقاماتهم الفتاة · وتتوالى هذه الظاهرة مرات عديدة أثناء وقوفي هناك ·

احاول في كثير من المرات أن أهز رأسي تعبيرا عن الامتنان ، وأجهد أن اشكر الفتاة ، فلا يتاح لي ذلك · وبالامس رفعت صوتي وانا أقول : شكرا ، بعد أن رأيتها تنجز عملي · لكن الكلمة تبددت في الهدير الذي كان يملأ المكان ، وطغى ايقاع الآلة الكاتبة على الكلمة فخنقها · ونقت أنها لم تسمع كلمتي ولن تسمعها · ثم خطر لي أن أعبر لها عن امتناني بحركة من رأسي أو يدي · الا أن الفتاة ظلت مكبة على عملها ، وما أن انتهت من حوالتي ودفعتها الى الموظف الجالس بقربها حتى تناولت حوالة أخرى بسرعة ، الحوالات كلهـــا متشابهة ، لا يميز بعضها عن بعض الا الارقام · على يديها البضتين يتحول المراجعون الى ارقام تاخذ طريقها بآلية وبتسلسل رقمي الى الادراج أو الى الصندوق ·

انني ما ازال أنظر اليها في هذه اللحظة ، واشعر بالمتعة نفسها تتجدد·· حين أنظر اليها ، كأني أرى هذا الوجه القمري والشعر المتموج أول مرة · وأسأل · أسأل في الحاح وضراعة :

ـ من أنت أيتها الآنسة ، ما اسمك ؟

ـ أين تقيمين ؟ هل لك اخوة وأحبة ؟

ـ ماذا تحبين ؟

ـ هل تحبين الشمس والبحر في الصيف ؟ والقمر والنجوم في الليالي الصافية الرقراقة ؟ هل تحبين الجبل والاشجار الأبدة فيه كما أحبها أنا ؟

ـ هل تحبين الموسيقا والشعر والرقص ؟

لم أتلق جوابا • كنت واثقا أنها لن تسمع كلماتي • ومع ذلك فقد رفعت صوتي سائلا • قلت : عسى أن تسمع •

تكتكة الآلة الكاتبة وحدها هي الجواب •

قلت في نفسي : « لو أن هذه الآلة تتوقف برهة عن العمل • لو أنني أستطيع بقدرة ما أن أعبر الحاجز وأقترب منها لأراها عن كثب • لأرى يديها الناعمتين وهما تعملان » •

في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة ذاتها • وحين خطر لي ذاك الخاطر على وجه الدقة ، شعرت بيد ما ، تمسك بي بمهارة ورشاقة وخفة عجيبة ، يد خبيرة كأنما تمرست بهذا العمل سنين طويلة ، ثم تضعني على منضدة مستطيلة يبدو انها كانت في أحد أركان المصرف ، الا أنني لم أنتبه الى وجودها قط • وبسرعة لا يمكن تخيلها اندفعت مدحلة هائلة الحجم ، سريعة الحركة فانقضت على جسمي كله دفعة واحدة • وها أنذا قد تحولت دون أن أتمكن من الافلات أو الصراخ أو الاحتجاج ، الى ورقة رقيقة • ثم وجدتني أطوى بآلية ذات ايقاع سريع ، وقفزت بعد ذلك قاطعة ذات شفرة لماعة فقطعت الاطراف الزائدة مني • وتناول أحد الموظفين الورقة وكتب عليها شيئا لم أتبينه ، ولكنني شعرت بحركة القلم وحدته في جسدي ، ثم وقع على ذلك • ودفع الورقة الى الفتاة الشقراء ضاربة الآلة الكاتبة ، فسجلت عليها رقما من بين أرقام متسلسلة اخترق عظامي ، وكان ذلك آخر عهدي بالنور ، وما أسرع ما وضعتني في أحد الادراج وأغلقت الدرج ، وسادت الظلمة •

بعد الصفير

لا بد أنه كان غافيا ، والا فكيف يمكن تفسير هذه القفزة المفاجئة ؟ و هــذا الاختلاج في جسده الممدد في السرير الابيض ؟ الا أنه يعتقد اعتقادا جازما أنه لم يكن نائما آنئذ ، وهو يصر على ذلك • انه لموقن أنه كان صاحيا وان كانت عيناه مغمضتين ، فلقد انتهى مفعول المخدر منذ أكثر من يومين بعد أن نجحت العملية الجراحية التي أجريت لقلبه نجاحا باهرا ، وبدأ يتماثل للشفاء و يسترد صحته تدريجيا ، ويزول الاصفرار من وجهه ، بل انه استطاع ظهر اليوم أن يتناول شيئا من الطعام ، ولكن الضمادات لم تنزع عن صدره بطبيعة الحال ، وليس من المتوقع أن تنزع قبل أيام عديدة •

الهدوء يعم أرجاء المستشفى ، والصمت مطبق على كل الردهات • لعــل

مرضى هذا المستشفى الكبير الواسع الذي لا تعرف له بداية أو نهاية قلـــة هذا اليوم ، على خلاف العادة ، أو لعلهم نائمون في هذه الساعة الهادئة مـــن ساعات العصر ، ربما كانت الممرضات كذلك قد أخلدن الى شيء من الراحة والسكون بعد ساعات طويلة من العمل المرهق ·

الا أنه كان مستيقظا فيما يعتقد ، أتراه كان نائما فأيقظه صفير القطار ؟ سيان · المهم أن هذا الصفير قد تناهى اليه ، اقتحم غرفته الصغيرة الوردية الجدران ، الموصدة البا ب، المغلقة النوافذ ، الهادئة الصامتة الموحشة ·

حين سمع صوت الصفير كانت الشمس تنسحب ببطء من غرفته ، وتخرج متمهلة من النافذة المطلة على الحديقة · وكان ممددا في فراشه يتأمل انطفاء نور الشمس التدريجي وحلول عتمة العصر الرمادية ، ومن خلف النافذة أشجار سامقة ، دغل من الاشجار ، تتساقط أوراقها الصفر بين حين وآخر اذ تحرك الريح الاغصان المنبسطة في الفضاء ، فتسقط الاوراق المتيبسة المتغضنة لتلامس الحضيض وتقيم هناك أمدا طويلا · قال في نفسه : « لماذا لا يزرعون الحديقة أشارا دائمة الخضرة لا تذوي أوراقها وتتساقط ، لماذا ؟ » ·

لم يمض وقت طويل على شروده حين سمع صفير القطار مرة ثانية ، لا ، لم يكن في هذه المرة مجال للخطأ أو الالتباس· انه صوت صفير القطار،ولا يمكن أن يكون شيئا آخر·ولكنه صوت رفيع حاد طويل،كصوت ناي حزين يتمزق حزنا، يأتيه من مكان بعيد · ويمتد الصوت ويمتد الى ما لانهاية · ينفذ الى مسام جسمه ، يهز عروقه وأعصابه · وشعر أن هذا الصوت يناديه،يستدعيه،وأنه هو وحده المقصود بهذا الدعاء · وتساءل : إلام يدعونني ؟ وأنا موثق بهذه الاربطة لا أستطيع منها فكاكا ؟ وتململ في سريره · عربات ، مجموعة من العربات السود اللامعة ، قائمة على خط حديدي مستقيم ، يخترق بساتين فيها أشجار دائمة الخضرة ، وارفة الظل ، ويجتاز جسورا ترعى مياها لا تنضب ، العجلات

تدور بايقاع منتظم ، والمرجل تلتهب من تحته النيران ، وينطلق القطار ، يطلق من صافرته بين حين وآخر صوتا حادا قصيرا · ويمضي في اتجاه لا يعرفه ـ ولا يعرف الى أين سيفضي به ، ولكنه يمضي مع ذلك ، عرباته لا تميل يمنة أو يسرة تنطلق مسرعة لا تتوقف لحظة ·

يتململ في سريره · بقايا من الالم تجتاح جسمه · ولكن صفير القطار يملأ مسامعه ، يسره ، يبعث فيه سعادة غافية · يوقظه من غفوته . يناديـــه ، ويتململ في سريره ، يود لو يستجيب للنداء · ويسال : أيان هذا القطار ؟ ومتى المنطلق ؟

يشعر بالغصص · انه ههنا وحيد · والمستشفى غارق في هدوئه . منعزل عن أية منطقة مأهولة · والقطار بعيد · في الطرف الآخر من البلدة ، في الطرف الآخر من الدنيا · وها هو ذا القطار على وشك الرحيل فأنى يكون الالتقاء ؟ انه ليتمنى أن يلحق به ، ولكن كيف يستطيع ذلك ، وبينه وبين القطار عالم قائم بأكمله ، عالم قديم هرم تجاوز سن الشباب منذ زمن بعيد وأنتن الا انه لـــم يضمحل بعد ·

مرة أخرى ينطلق الصفير ، ولكنه الآن هادىء متقطع أبح . فيه مزيج من الشجو واليأس ، والكآبة والملال،كان الصوت قريبا منه،قريبا على نحو مدهش، حتى لقد نهض قليلا وجثم في سريره ينظر من النافذة المطلة على الشارع القريب من حديقة المستشفى ، وسرعان ما تبين أن الشارع خال ، وكادت تفلت منه ضحكة سريعة ، كيف يسير القطار في هذا الشارع الجانبي الضيق الصغير ؟ وأيقن أنه بات قادرا على النهوض ، وان الحركة التي قام بها لم تؤلمه بل لم تؤثر فيه البتة · وكان هذا كافيا لأن يحفزه على النهوض ، فنهض وتسلل من فراشه ببطء وحذر ، وارتدى ثيابه التي جاء بها الى المستشفى قبل أن تجرى

له العملية ، وخطا بضع خطوات في غرفته ، ثم فتح الباب في هدوء ، وتريث قليلا قبل أن ينطلق ، والقى نظرة أخيرة على هذه الغرفة الوردية ، لا شيء فيها يلفت الانتباه سوى هذا السرير ومن فوقه ملاءة بيضاء مبعثرة ، وثمة في الزاوية الاخرى باقة صغيرة من الزهر الذاوي ٠

ومضى يسير في الردهات بخطوات بطيئة حذرة ، تخشى أن تهز الصمت الغافي المطمئن المتمدد في الارجاء ٠ وتسلل من باب المستشفى الكبير ٠ ما من حارس ، وهو يذكر أنه رأى الحارس ومجموعة من الممرضين والممرضات في البهو يوم دخل المستشفى ٠ أما الآن فما من أحد البتة ٠ وراح يخطو خطوات بطيئة أول الامر ، متحاملا على نفسه ، يخشى أن يقع ، ولقد سبب له بعض الالم ، ولكنه لم يلبث أن تمالك قواه بعد أن أنعشه هواء المساء الخريفي ، واندفع يحث الخطا ، وسرعان ما راح يعدو في دروب موحشة ، وبدت له البنايات في الطرف الآخر من البلدة أشبه بالمقابر ٠ ولم ير أو يلمح خلال مسيرته الطويلة أي انسان أو طفل أو فتاة ٠ الدرب خال من أي وجود انساني ، وكان عليه أن يسير ٠ أن يقطع مسافات طويلة ، فمحطة القطار ، فيما يعلم ، تقع هنالك ، في الطرف الآخر ، على تخوم المدينة ، وبدأ يغذ السير ، والدروب معتمة لا ينيرها أي مصباح أما ضوء النجوم فكان شحيحا ضئيلا لا يكاد ينير الدروب المتعرجة تلك ٠

وأخيرا لاحت له المحطة الغارقة في الظلمة : بناء كبير كقلعة أثرية أو كنيسة قديمة ، ذو جدران سود ، يشكل مستطيلا حجريا صلبا تائها في بقعة مهجورة ٠ أما نوافذه القليلة فمطلية بدهان أزرق يمنع تسرب الضوء الى الخارج ٠ ولاح له سقف المحطة بقرميده الاحمر الغامق . وقد تآكل من القدم ، ولمح على بعد أمتار عديدة من واجهة المحطة الامامية سيارات عديدة واقفة الواحدة تلو الاخرى في خط مستقيم أما م الرصيف ٠ وحين دنا من هذه السيارات تبين أن سائقيها غافون على مقاودهم ، مكبون عليها ، لا تبين وجوههم ٠

ووطئت قدماه مدخل المحطة الحجري المتآكل ، وقد اصطفت على جانبيه أشجار السرو السامقة ٠

ودخل قاعة الانتظار الكبيرة ٠ لم يكن هناك مسافر أو عائد من سفر ٠ لا شيء غير مقاعد خالية ، وصمت واسع ٠ القاعة هادئة ساكنة ٠ وتناهى اليه صوت الصفير ٠ لا شك في أن القطار على وشك التحرك ٠ ولم يتردد لحظة واحدة ٠ وتساءل وهو يبحث عن شباك التذاكر : الى أين يمضي هذا القطار ؟ والى أين يرغب هو في الذهاب ٠ وتلفت حوله : كانت اللوحة الطويلة التي تحمل أسماء الجهات ومواعيد رحلات القطر مقلوبة ، مطلية بدهان أسود ٠ أما شباك التذاكر فكان ينيره ضوء مصباح شاحب . واتجه اليه بسرعة ، والفرحة تغمره ٠ كان الشباك مغلقا بباب صغير ذي قضبان حديدية ٠ ولم يكن فيه أي موظف ٠ والقطار يصفر مع ذلك ، فيسمع صفيره قويا عنيفا حادا متواصلا ، من الجهة الاخرى من بناء المحطة ٠

لم يأبه بذلك ٠ قال : سأتجه الى القطار ، فها هو ذا يناديني ، وسأمضي بعيدا ، ولتكن وجهته ما تكون ٠

ومضى نحو الباب الآخر المطل على السكك الحديدية ٠ كان الباب مفتوحا على مصراعيه ولا أثر لوجود مراقب التذاكر أمامه ٠

ولاح له القطار من بعيد ٠ كان قطارا غريب الشكل يتألف من عربة واحدة ، يلتمع دهانها ويتوهج في العتمة ، وكأن ضباب كثيف يفصله عنها ٠ وراح يقفز فوق القضبان الحديدية ، ويجتازها عدوا في حركة راقصة مهتزة ٠ وحين اجتاز سحابة الضباب كما لو كان يجتاز أمواج البحر ، تريث قليلا أمام القطار يتأمل شكله الجميل ، كان البخار الحار يتصاعد من فوهته ، ولمح العجلات على أهبة الحركة ٠ وأما ألفت عيناه الظلمة أبصر من خلال ضوء

أصفر شاحب ينعكس على المقاعد جماعة من المسافرين واذ دقق في قسماتهم صرخ في دهشة كبيرة : آه !

لقد عرفهم ، لقد عرفهم جميعا بلا استثناء · انهم أحباؤه وأصدقاؤه وزملاؤه · ورأى أباه وأمه جالسين في أحد الاركان ايضا · ولم يستطع أن يصدق عينيه · ومع ذلك فهاهم جميعا أمامه ، وكان يعتقد فيما مضى أنهم ماتوا، انه ليراهم ، لا يفصله عنهم الا حاجز من زجاج . ورمقهم في حب وشوق ولهفة · وندّ عنه صوت شجي :

ــ أنتم ، يا من أحبهم !

الا أن أولئك جميعا لم يكترثوا به ، أو لعلهم لم يروه ·

واضطرب خطوه وهو يبحث عن مدخل القاطرة · سيجلس بينهم ، سينطلق معهم الى حيث ينطلقون ·

وفاجأه على مدخل القاطرة وهو يرفع احدى رجليه بالدخول ، رجل طويل القامة ، طاعن في السن ، أحمر الوجه والعينين ، أشعث الشعر ، متسخ اليدين · ولم يمهله الرجل ، بل صرخ في وجهه :

ــ ماذا تفعل ههنا ، وكيف تحاول ركوب القطار ؟ كيف تتجرأ ؟· ·

قال في شيء من الخوف :

ــ لم يتح لي أن اقطع تذكرة ، فشباك التذاكر مغلق ، وأنا على استعداد لأن أحصل على تذكرة في الحال ·

هز الرجل رأسه علامة النفي ، وقدر أن هذا لا بد أن يكون سائق القطار اذ رآه يحرك بعض الآلات استعدادا للرحيل ·

قال في لهجة رقيقة يستعطف السائق :

ـ ولكنني، ياسيدي ، أود الذهاب معهم ، مع أولئك ، فهم أهلي وأحبابي ·

وكأنما رق قلب السائق له ، فقال بنبرة ودية :

ـ تمهل قليلا لنرى ·

وسحب من فوق احد الرفوف المقامة اضبارة كبيرة ، ثم أخرج منها ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ونظر فيها مليا · وبعد برهة قال له :

ـ لم يرد اسمك في هذه القائمة ، وعدد الركاب كامل ، وليس في القطار متخلف ، وليس فيه متسع لراكب جديد · ويؤسفني ألا أستطيع تلبية رغبتك ·

دُهش كيف يعرف السائق اسمه ؟ ولماذا لا يسمح له بالذهاب ؟ وآنى له هذه السلطة ؟!

وأراد السائق أن يسري عنه بعد أن رأى العرق يتصبب على جبينه ، فقال له بمؤاساة :

ـ لاتحزن كثيرا ، فقد يتاح لي أن آخذك في رحلة قادمة ·

ثم دوى في الافق رنين ناقوس نحاسي ، فملأ صوته الارجاء · ومضى القطار يسير ببطء أول الامر ، ثم أخذت حركته تشتد حتى اختفى عن انظاره ·

سوناتا ليلية

صوت الكلارينيت ينطلق مبحوحا شاحبا كئيبا كصوت المو ت· يتناهى اليك في قلب الظلمة من لا مكان · أنت واثق أن الدروب خالية . والمنازل تغفـــو على من فيها ، فمن أين تراه ينبعث في عتمة هذا الليل ، يشق حجب الظلام الكثيف ؟ وتحاول في ضيقك أن تسد أذنيك عن سماعه حتى لتكاد تغلقهما بيديك · ومع ذلك فاللحن يتعالى هادئا حزينا . من أعماقك يتعالى ويمتد ويتطاول ثم يجتاحك فيملأ نفسك وكيانك وحواسك جميعا . لكأنه يحفر أرضا صلبة بأظافره ، وعبثا تحاول أن تتخلص منه ·

وها أنت تسير وحيدا في غير ما اتجاه معين ، ولا الى هدف مقصود ، وحيدا شاردا تقطع شوارع البلدة الهادئة ودروبها الموحلة · حبات صغيرة من المطر

تتساقط في أناة وشح فترتطم باسفلت الشوارع ، الا أن صوت الكلارينيت يطغى عليه ويلاشيه · ومع أنك تحمل مظلتك فأنت لم تشأ أن تفتحها ، وظللت تسير غير آبه بالمطر وهو يتساقط خفيفا رهوا فوق رأسك وعلى كتفيك ، ويعلق بمعطفك ·

في تلك الهنيهة رأيتها · وسط العتمة ، ودهشت لمرآها · لقد ألفت أن تلقاها دائما في الصباح · كان النور يضيء وجهها ، ينسكب على كتفيها ، يمسل يديها ، الا أنها في هذه العتمة ، ظلمة الليل هذه ، لم تكن أقل بهاء منها في النهار ، بل لقد بدت لك كاللؤلؤة تلتمع في الدجى · أتراك تحب وجهها أم هذا النور العبق المنسكب عليه ، المتلألىء فوقه ؟ وماذا عن الايام التي لا تراها فيها ؟ أيامك تلك سماء بلا نجوم ، ووحشة هادئة متصلة ، وضيق يمسك بخناقك،وها أنت تشعر الآن بسرور لا حد له لهذه المصادفة ، فقد انقضت أيام عدة لم يتح لك أن تراها خلالها ، وكان قلبك شديد الانقباض · لا ، لم تكن تتوقع أن تراها قط في الليل : فالليل محار ينغلق على لآلئه · وها هي ذي أمامك : كما عرفتها دائما ، بوجهها الطفلي الباسم المتلألىء ، وما اللقاء ؟ ما لقاؤها ؟ نهاية شوق وانتظار ، وبداية شوق وانتظار جديدين · واحة بين صحراوين ·

وتوقفت عاجزا عن الكلام ، كأنما الكلمات توقفت في فمك ، الى ان وصلت الى حيث أنت ، فلبثتما مسمرين الى الارض ، متقابلين ، لحظة بل لحظات ، هي دهور وازمان أو ثوان قصيرة كالومض · وقطعت مسيرة الصمت ، انك لتحب صوتها الابح بكل ما فيه من عذوبة وتوتر وانفعال ، لتقول لك :

ــ أنت ههنا ؟!

أكانت تعبر عن دهشتها أم عن سرورها ؟ أنى لك أن تعرف ذلك ، أنى لك أن تسبر محيطا تتصل أغواره بآخر الكون ·

نظرت اليها في غبطة ، ولم تدر بمَ تجيبها · ولكنك رأيت قبعتها الجديدة، قلت في نفسك : « لا شك في أنها جديدة لم يسبق لي أن رأيتها » · وأشرت اليها باصبعك فيما يشبه الخجل والارتباك · وأدركت ماذا تعني، الا أنها اكتفت بابتسامة رقيقة ، واحمر خداها ·

ظللتما واقفين ، تحت قطرات المطر ، رغم قطرات المطر ، ورحت تتأمل هذه القبعة الجلدية البنية اللون التي تخفي شعرها الاسود وتزيد وجهها بهاء وضياء · كانت حبات صغيرة من المطر قد علقت بأطرافها ، مستديرة ، مكتنزة· وأخذت تتلألأ وتهتز خوف السقوط ·

ورحتما آنذاك تتحدثان حديثا طويلا مسهبا . عم كنتما تتحدان ؟ عن كل شيء ، وعن لا شيء ، فلم ينقض على لقائكما الطويل في ذلك الصباح أكثر من أيام معدودات لم يجدّ خلالها أي جديد ، ومع ذلك فقد انطلقتما كشلال عاجز عن التوقف ، وكأنكما تلتقيان أول مرة منذ دهور · وكانت تضحك أثناءالحديث ضحكات منبثقة من القلب فيمتلىء الوجود ، وجودك ، بالفرح والبهجة · ومع ذلك فقد جهدتما ، عن غير قصد ، كدأبكما دائما، في ألا تقربا أو تمسا الموضوع الاساسي ، ما يربط بينكما برباط متين وثيق . الا أنه ، يا للسر العجيب ، كان يغلف كل أقوالكما وحركاتكما ونظراتكما ، ويتجلى سعادة وفرحا في أعينكما ·

· قلتَ لذات القبعة وقد أخذ المطر يزداد تساقطه :

ــ أما تعبتِ من الوقوف ، أخشى أن يؤذيك المطر والرطوبة ·

لم تجبك · أطرقت ببصرها الى الارض تتأمل قطرات المطر وهي تتدافع وتتواثب ، ثم رفعت وجهها باسمة وقالت لك :

ـ لا شيء يؤذيني ...

وقدرت أنت أنها لم تنته جملتها . وخيل اليك أنها تريد أن تقول : « ما دمت معك » أو « ما دمنا معا » .

وأسرعت تتلمس مظلتك . عجبا كيف لم تتذكرها كل هذه الفترة . قلت لها في ارتباك وخجل :

ـ سأظللك .

وفتحت المظلة السوداء فاحتوتكما بيسر وسرعة .

قالت : نسير ، فهذه الدرب تفضي الى منزلي .

سرتما متباطئين . قلت في نفسك : « حبذا لو كانت الدرب الى غير ما نهاية » . ولكنك سرعان ما استدركت في سرك أن لكل درب نهاية .

واصغيت الى وقع قدميها على الارض . أكان لها ايقاع خاص ؟! ولم تتردد في تأكيد ذلك . وانك لتستطيع أن تميزه من غير جهد . ثم لذت بالصمت برهة بينما الدرب تتعرج وتتلوى تحت أقدامكما ، وحبات المطر تتساقط غزيرة فترتطم بالمظلة وتتطاير منها الى ثيابكما ، والى الارض ...

قالت لك فجأة : « ما بك ؟ »

وهززت رأسك ، وعلت فمك ابتسامة شاحبة : « لا شيء » .

قالت : « ما هذا الوجوم في وجهك ؟ اني لأتبينه رغم العتمة » .

لم تجب بحرف . ولم تعد تنظر الى قبعتها البنية . آنذاك ارتفع صوت الكلارينيت في أذنيك مرة أخرى ، أبح ، شجيا يئن أنينا ممتدا متصلا . لا ،

لعله لم يتوقف طوال هذه الفترة ولكنك أنت كنت عنه غافلا ، كأنما كان هو والوجود معلقين الى حين ، وكان ثمة شيء ما يثقل كتفيك وينوء به عنقك ٠

وعادت الى الكلام ، ها انت تصغي الى الصوتين معا ، صوتها العذب وصوت الكلارينيت الشجي ينطلقان في اتساق ٠ همست في أذنك :

ـ هل تعلم أن الحياة هبة جميلة وثمينة ؟

قلت : أعرف ذلك ٠

وساد الصمت وامتد برهة طويلة ٠

رفعت راسها ، فلمحت عنقها العاجي وعينيها المشتعلتين وجبينها الناصع البياض ٠ قالت وكانت أصابع يديها يتكلمن أيضا :

ـ عش حياتك ، فلن تعطى الحياة مرتين ٠

وابتسمت ابتسامة فيها كثير من المرارة والضيق ٠ كانت تضيف :

ـ واذا أهملت الحياة وبحثت عن الوجود فسيفلت منك كلاهما ٠

قلت في نفسك : انها تتحدث باخلاص ، وكلامها يطفح بحب لا حدود له ٠

وصرخت في ضراعة :

ـ لست أريد أن يفتقد أحدنا الآخر ٠

ثم التصقت بك ، بل القت راسها على كتفك ، وبقيت تظللها رغـــم انقطاع المطر ٠

لم تشعر قط أنها أكثر امتزاجا بك كما كانت عليه في هذه اللحظة ، وفي

هذه اللحظة ذاتها بدا لك جبل قاسي الملمس ، بصخوره المحدودبة الناتئة الاطراف ، يفصل بينكما ·

لم تعد المسافة التي تفصلكما عن المنزل كبيرة ، ومع ذلك فقد أخذ هذا الجبل يزداد علوا واتساعا ووعورة ، وشعرت أنه يباعد بينكما بعنف لا مثيل له . وصرخت في ألمك صراخ من يسلخ جلده حيا ، وأردت أن تبعده بكل ثقله ، أن تقفز فوقه ، أن تتجنبه ، ولكنك شعرت أن كل جهد انساني لا جدوى منه · وها أنتذا تراها في الطرف الآخر من الجبل ، لقد أصبح كل منكما على سفح من سفوحه فأنى اللقاء ؟

قلت : تفتتي أيتها الصخور ، وابتلعي يا أغوار الارض هذه الحجارة الصلدة · في شدتك صرخت ، واستغثت · ولكن لم يستجب لك الا صوت الكلارينيت الذي انطلق معذبا كحيوان ذبيح يرسل صيحاته · كان راسها ما يزال مستندا الى كتفك ، وكان منزلها على بعد خطوتين منكما -

التالق

الرياح ، الرياح العاصفة العاتية الهوج تملأ الارض والسماوات فجأة · تدفع الغيوم بلا هوادة في عنف وقسوة ، وتمضي بها في كل اتجاه ، فتتدافع ويزحم بعضها بعضا · الرياح تشتد ، وتعصف كأمواج بحر مزبد ، تحيط بي من كل جانب ، تكاد تقتلعني من الارض ، من موقعي على الارض ، وتطوح بي ، أتماسك مهدود القوى ، ثم يومض البرق فترتجف أجفاني ويزيغ مني البصر · هي ذي السماوات قد امتلأت بالغيوم · أحدق في صفحة السماء فــلا ارى للنجوم أثرا ، السحب السود غطت صفحتها ، والليل من حولي مظلم أسود· انظر الى الليل فأجده مبهما أصم،أحاول ان أستنطقه فلا يبين،وأنظر الى السماء فأراها كتيمة لا تشف عن شيء ، في عصف الرياح المستمر يخيل الي أن صفحة

السماء ستطبق على ظلمة الارض حولي · لا أدري أفزع أنا أم خاشع · ويشتد عصف الرياح وعويلها ، يشتد في كل مكان ، في كل الارجاء · أرفع يدي فـــلا أتبينها ·

ثم تتباعد كل الغيوم بعضها عن بعض ، وتظهر في صفحة السماء ثغرة ، ثغرة واسعة ولكن الغيوم ما تزال كثيفة سودا ، وفي السماء تبدو الثغرة بين الغيوم زرقاء صافية ، زرقتها شفافة هادئة كصفحة من البلور ·

أنظر الى هذا الصفاء في الزرقة فأراه يغني ، غناؤه عذب ، تلتقط أذني صوت صفائحه · ويظهر السنا · لا ليس هذا برقا عابرا ولا ومضا خاطفا · انه سنا مقيم ثابت لا يريم · وفي ضياء السنا أراها ، أذهل عما حولي ، وتلف الارض ظلمة صلدة ، وأستشف صفحة السماوات · بريق بريق بريق : ذاك وجهها واني لأعرفه · وفي الحق أني لم أرها أول الامر ، بل رأيت وجهها ، بل جانبا من وجهها ، التفاتة منه ، وكان هذا كافيا لكي أتعرفها فورا ، اني لأستطيع أن أتعرفها بين ملايين الفتيات في العالم ، لم أتساءل ما الذي جاء بها الى هذه البقعة من السماء ، حسبي أن أراها وأشعر بسعادة غامرة تعمر وجودي وتجعله يغني ، هي ذاك الفرح الوحيد الذي أشعر به كلما أتيح لي أن أراها ؛ الفرح الوحيد الذي تبقى لي في العالم · وهأنذا أراها الآن ، أراها كأحسن ما تكون الرؤية · أرى هذا الجانب من وجهها ، وان هذه الصفحة من وجهها لمنيرة تلتمع ، خصلة من الشعر الاسود طويلة تغطي طرفها ، وبدت لي احدى عينيها السوداوين ، وفمها بشفتيه الرقيقتين ، وعنقها البض ، ورأيت الحياة ، نسغ الحياة،ينبض في هذا الوجه القمري،والوجه مني قريب قريب،وعلى الرغم من المسافة الشاسعة التي تفصلني عنه ، أشعر أني مشدود اليه ، وتتعلق عيناي بصفحة السماء ·

ثم أرى جسمها ملفعا بثوب أبيض سابغ ناصع كأنما من خيوط الغيوم

نسيجه • الجسم ممدد أفقيا في وسط السماء، الظهر منه الى الاعلى ، والغيوم السود الكثيفة تحمله • وينتصب رأسها كأنما كانت تسبح بين الغيوم على صدرها وها هي ذي ترفع رأسها فجأة فيتوهج البريق ، يتوهج أمدا طويلا وتتشرب به نفسي ، بؤرة الرؤية تتركز على جانب من وجهها وعنقها وذراعها وساقها • ثم ينطفىء النور ، ويختنق البريق ويخبو التألق ، فلا يبقى لها في صفحة السماء من أثر • أشعر كأن سهاما قد انتزعت من جسدي • الغيوم المتسخة تزحف مسرعة لتلاشي الثغرة التي ظهرت في السماء . ولا تلبث الثغرة أن تغيب • في عصف الرياح تندفع غيوم أخرى جديدة لتطرد الغيوم وتحملها الى الطرف الآخر من السماء ، وتحل مكانها غيوم جديدة أشد ظلمة وأكثر قتاما •

ويسألونني : « وماذا عنك ؟ »

فأجيب « لقد أتيتُ ورأيت » •

ويسألونني : « وماذا رأيت ، أيها القابع في مكانك لا تتخطاه ؟ »

أنى لي أن أجيبهم ، وأنى لهم أن يفهموا ــ لو أجبت ــ أني رأيت الوجود من خلل ذاك الوجه القمري ، وكان الوجود ، يومئذ ، فرحان يغني •

واقف أنا الآن في حقل مترامي الارجاء ، العشب الاخضر يكسوه غطاء جميلا لماعا يمتد على مرمى البصر ، تعلوه أزهار متناثرة في غير اتساق تنتشر هنا وهناك ، وتبسق أشجار وارفة ، في خطوط مستقيمة متقاطعة فيه ، تتطاير منها عصافير صغيرة ذات أجنحة قصيرة وتحوم حولها ثم تحط على أغصانها ، الحقل بعيد عن كل منطقة مأهولة ، في منأى عن كل حركة أو ضجيج • يخترقه جدول من الماء العذب الصافي العذب ويشطره شطرين متساويين • يسيل الماء في الجدول بطيئا متهاديا ، وتمس أشعة شمس المغيب طرفا من صفحته • يتألق الحصا في قاعه ، ويبدو سلكنا صامتا في شفافية الماء • أقترب منه متمهلا ،

النسيم يداعبني ويمس أزهار الحقل مسا رهوا ، ويحني ذؤابات الاعشاب في أناة وحنو ، ويمسح على أجنحة العصافير ٠

أقول في نفسي : فلأغسل وجهي ويدي في هذا الماء الصافي ، ولأطفىء ظمئي بجرعة منه ، وأقترب ٠

حين غمست يدي في الماء وحدقت في صفحته الجارية ومض البريق والتمع٠ ما الذي جاء بك الى هنا ؟ بثوبك الابيض السابغ ، لقد رأيتك علـى صفحة الماء ممدة ، رافعة رأسك ، وحبب الماء يحملك خفيفة رشيقة ، ويمضي بك الى حيث لا أدري ٠ لقد رأيت عنقك البض ، وبانت لي عيناك السوداوان ، ذلك وجهك القمري ، وتلك التفاتتك ، وهاتيك خصلة الشعر الاسود التي تغطي وجهك : أنسى الحقل والجدول والظمأ ، أنسى الاشجار والازهار ، أغفل عن كل ما يحيط بي ، وأندفع لأمسك بك . كنت قد كورت يدي وملأتها بالمـــاء ، واذا الماء يتسرب من بين أصابعي ، ويخبو التألق خبوا مفاجئا كما ظهر ، وما أسرع ما تختفين ٠ وأمضي باحثا عنك وأنا أسير على ضفة الجدو ل٠ وأسير ساعات طويلة ، الى أن أرى الجدول يستحيل سلسالا من الماء منتشرا على صفحة الارض ويختفي ٠

أجلس في منزلي ، لا يبدو علي أي أثر للتعب أو الالم ، كأني ما سريت الساعات الطوال ٠ هل بددت ذكرى رؤيتك كل آثار التعب واحتوى مرآك الالم ؟ الهدوء والسكون يخيمان على الغرفة ٠ أضغط مفتاح التلفزيون الموضوع بجانبي ، وبعد هنيهة تضاء الشاشة ٠ أرى مذيعة ما لم يسبق لي أن رأيتها قط تقدم أغنية جديدة ٠ في عينيها ألمح الضياء ، وبسرعة مذهلة ارى عينيها تتألقان ، هذا وجهك مرة ثانية ، وهذا تألق عينيك نفسه يبدو أمامي،فأتعرفه، على نحو قاطع ٠ وتختفي المذيعـة ، الا أن أثرا من هذا التألق ما يزال عالقا في شاشة التلفزيون ، وتألق عينيك مـــا يـــزال ماثـــلا في أعمـــاقـــي ٠

أتذكرين ؟ كنت يومذاك أسير ببطء بعد أن أنجزت عملي ٠ فرأيتك نازلا صاعدة . وفجاة التمعت عيناك ومضتا وبان فيهما التألق ٠ لم ترتعش شفتاك بكلمة ، ولكن عينيك كانتا تتألقان . تتكلمان . تفصحان ، تبينان من غير قول ٠ ورأيت فيهما الصفاء والشهوة . السكون والعاصفة . الخفر والجرأة ، العذوبة والمرارة . الفرح والالم . نورا يضطرم ويخبو . و نارا تدفيء وتحرق ، وسرابا يحسبه الظمآن ماء ، وأمرا . ونداء . ضارعا ٠ كانت العينان منك تتحركان ، تمضيان وتعودان . تغوران وتظهران ٠ ولم يدم ذلك كله جميعا الا المدة التي استغرقها نزولي درجتين وصعودك على تينك الدرجتين من سلم البناية الطويل . وحين استدرت أحاول رؤيتك مرة أخرى كنت قد وصلت الى الطابق الثاني . وحجبتي عنك حجارة السلم ٠

□ □

قلت في نفسي وانا أطأ مدخل البناية التي فيها أقيم : « فلأفتح صندوق البريد ، فربما كانت لي فيه بعض الرسائل » ٠ وأخرجت مفتاح الصندوق من جيب سترتي ببطء ، وفتحت الصندوق الخشبي الصغير المثبت في الجدار الايمن من البناية ٠ لا شيء فيه البتة ٠ صندوق الرسائل فارغ دائما . وفي كل يوم أفتحه في مثل هذه الساعة رغم يقيني أني لن أجد فيه شيئا ٠ أقفلته ببطء ووضعت مفتاحه الاصفر الصغير في جيبي ، ولما خطوت الخطوة الاولى على سلم البناية دوت الطلقة الاولى ، ولمحت يدا تمسك بمسدس ، ممدودة من أعلى ، فشعرت بالفزع ٠ وبدا لي بعد لحظة أن هذه اليد لا تستهدفني لأن الطلقة كانت في اتجاه آخر مغاير للموضع الذي وقفت فيه أبحث عن بريدي ٠ وقد رأيت أن من الافضل أن أتريث في الصعود ، بل خطر لي أن أعود أدراجي الا أنني آثرت أن أنتحي الجهة اليسرى واقف بجوار حائط كثيف الحجارة ولبثت أنتظر ٠ عند ذاك دوت الطلقة الثانية ٠ لم تنطلق هذه المرة من فوق كما كنت أخشى ،

13

بل انطلقت من أمامي مسددة الي . كانت يد أخرى رابضة في احدى زوايا المدخل ، وكأنما كانت على ثقة أنني اذ أسمع الطلقة الاولى سأتحول الى هذا المكان ، والتمع البرق الذي لم يخطئني ، وفي تألقه رأيت عينيك وعنقك البض وخصلة الشعر الاسود التي تغطي طرفا من وجهك ، ورأيتك تسبحين أمامي على صدرك ، الوجه مرفوع الى الاعلى كأنما كنت تسبحين في الهواء .

... اضطراب سيارة الاسعاف أشعر به حين تمر فوق الحفر ، وأسمع صوت صافرتها تشق دربا لها بين السيارات والمشاة في الشوارع المزدحمة . أشعر بالمحفة تنقلني الى أعلى . أسمع صوت المصعد الكهربائي يتحرك ويتوقف.

أسمع الطبيبين الجراحين يتحاوران الى جانبي ولكنني لا أراهما ولا أتبين كلامهما . أقول في نفسي ، أردد بصوت عال ، ولكن لساني الجاف لا ينطق :

« لقد أتيتُ ورأيت وأحببت » .

التقط بصعوبة كبرى سؤالا يطرحه أحد الطبيبين على زميله ، لعله يحمل في يده شيئا ولكن الغشاوة في عيني تمنعني من الرؤية :

ـ هل هذا كاف ؟

يجيبه الطبيب الآخر :

ـ هذا يكفي .

المحتـــوى

٢٠٠٠/٤/١٩٧٦

دار الانوار للطباعة

دمشق ـ المنطقة الصناعية